كرسي على الشاطئ

كرسي على الشاطئ (كتاب السيرة الأبوية)

الأمجد بن أحمد إيلاهي (كاتب وشاعر تونسي)

الطبعة العربيّة الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-469-6

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2022 /1 /154)

819.9

إيلاهي، الأمجد

كرسي على الشاطئ / الأمجد إيلاهي. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(152) ص

ر. إ: 154/ 1/ 2022

الواصفات: النصوص الأدبية / / الخواطر الأدبية/ / الأدب العربي/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الأمجد بن أحمد إيلاهي

كرسي على الشاطئ

(كتاب السيرة الأبوية)

نصوص

الرسالة

بقلم: آدم فتحي

تحياتي صديقي
قرأتُ كتابكَ واستمتعتُ به حقًّا.
فشكرًا (عليكَ وعليه) وهنيئًا (لك ولنا) به.

صاحَبْتُك وأنتَ على كرسيّك، قبالةَ شاطئك. جلستُ قربك على امتداد صفحات الكتاب. رأيتُ ما رأيتَ من أفق ومياه ونوارس. استحضرتُ ما استحضرتَ من أشخاص وأشباح وأهل وأصدقاء «يُلوّحون لك من خلف الظلال». أنصتُّ إلى ما أنصتَّ إليه من أصوات جريحة وأزكمَتْ أنفي روائحُ عبقت بها كلماتك، وقاطعتُ «الفواكه» التي قاطَعْتَ.

بل لعلّي غصصتُ بين الحين والآخر بالشهقة التي غصّ بها حلقك. وأنا أنتقل معك من الأغنية الليبيّة «وانت نسايم رحلتي والعون» إلى صوت والدك وهو يسأل «تحرّكش عون؟». أو لعلّي مددتُ يدي معك أُشاركك «لحظتَكَ» مع ذلك الشيخ وهو «يتعارك مع شباكه الملتوية».

سافرتُ معك «إلى مكانك البعيد»، واستعدتُ صورًا من رواية «الرسّام»، وزرتُ سليم دولة، واستمعتُ إلى فيروز، وحاورتُ جدران «الحَجْر الصحيّ» فإذا هي تحتضن أرضًا أرحبَ في بعض الأحيان من تلك الحبيسة خارج الجدران، ومثلك، تذكّرتُ شوقي العنيزي، وتذكّرتُ أمّي، وتذكّرتُ جان دوست، وتذكّرت الحرب، وتذكّرتُ وجَعَ غياب الأب، وتذكّرتُ النسيان.

مثلك عملتُ على «ترميم الروح المعطوبة كدبّابةٍ بعد حرب». مارستُ «الشرود» وخضتُ معه أكثر من «مونولوج». استعدتُ ملامح «مريمات» كثيرات لم أركض خلفهنّ مثل الغول. استمعتُ إلى عبد الرزاق عبد الواحد يقرأ الشعر ويبكي. دخلتُ مخيّمات اللاجئين. جلستُ إلى نصر سامي، الشاعر والكاتب الذي لم تسمح لي الظروف بالتقائه كما أريد، لكنّي أحببتُ نصوصه وأحببتُهُ من خلالِها فكأنّه صديق حميم.

أخذتني معك من الصخيرات إلى مسقط، وصلالة، وثمريت، وظفار، وشمال الباطنة، والخابورة، وغيرها. تحدّثتَ عن أعمام وجيران ونساء كادحات وطيبةٍ تُناطح صلابة الأرض فذكّرتني بقريتي أمّ الصمعة في نفزاوة بالجنوب التونسي، وبقرية الشريفات في الوطن القبلي حيث عشتُ طفولتي. ذكّرتني بنسائها ورجالها. ذكّرتني بأبي وأنت تتحدّث عن أبيك الذي كان «يحبّ ألاّ يحزن معه أحد». وبكيتُ معه ومعك وأنت تُخاطِبُ

الطبيب الذي «وعدكَ» بأن تمشي ثانيةً. ثمّ مسحتُ دموعي وابتسمتُ، مثلك «لكلّ ما سوف يكون شماتةٌ في الوقت الرديء».

ذكّرتَني بي وأنت طوّحُ في الآفاق وتلتقي عربًا وهنودًا وبنغالاً وتمارسُ صلاتَيْكَ: التعليم والكتابة. كم ذكّرتَني بي وأنت تكتب أماكنك ووجوهك هذه، لطول ما عاشرتُ «محنتكَ» وأنا ابنُ مُعلّم، ثمّ وأنا أمارس التدريس لسنوات، منتقلاً من ريف إلى ريف، لا «أنغرس» في مكان إلاّ «اقتُلِعْتُ منه»، حتى استقرّ في عقولي ووجداني أنّ الغربة هي الأصل، وأنّ عليّ أن أستأنس بالعزلة وأن أؤثّثها بالوجوه والذكريات والأحلام.

شعرتُ بألفةٍ كبيرة تشدّني إلى معظم صفحات كتابك، لأنّها كانت «نوافذ» مفتوحة على حياةٍ في شذرات، لعلّها في الكثير منها شذرات حيوات قرّائك. إلاّ أنّي شعرتُ أحيانًا بالرغبة في دعوتك إلى التثبّت من كلماتٍ قد تكون ذهبَتْ بالقول إلى أبعد ممّا أردتَ لها يا صديقي. تقول في الصفحة **95** «قبْل أن تتخونج البلاد وتفوح منها رائحة الجهل كحريق في مزبلة (...) كنّا بخير (...) قبل كلّ ذلك كانت مدينتي المعزولة تعرف الحبّ وتحترم الحياة. وعلى بساطة كلّ شيء كان لكلّ شيء معنًى ودلالة.» وأغلب الظنّ عندي أنّنا لم نكن بخير يا صديقي، وإلاّ ما كان لما حدث أن يحدث. كانت المرايا تكذبُ على الجميع وتُحاول إيهام الكثيرين بأنّهم يعيشون داخل «بطاقة بريديّة» وتكاد تقنع الكثيرين بأنّهم

«أفضل شعب في العالم». كانت «الكمّامات» المرئيّةُ والخفيّةُ تمنع «بواطن الأمور» من الظهور إلى السطح. ولعلّ من مزايا المرحلة الراهنة (على سلبيّاتها الكثيرة) أنّها واجهتنا بحقائقنا المُرّة وأزالت عنّا كلّ ماكياج وكشفت لنا عن أفضل وأسوأ ما فينا. وإذا كان ساسةُ المرحلة الراهنة قد أجهضوا الحلم، حتى الآن، فلأنّهم في أغلبيّتهم الساحقة ومع احترام الاستثناءات، تلاميذ نجباء لساسة المرحلة السابقة. لكنّهم راحلون طال الزمن أم قصُر. والأمل في الجيل القادم الذي تسهر على تعليمه أنتَ وأمثالك. فالحذر كلّ الحذر من النوستالجيا والإحساس بالخيبة. ليس لِخيبتنا في الخلَف أن تُجَمِّلَ قُبْحَ السلَف، وليس لسوء واقعنا الراهن أن «يُبيّض» الماضي أو ينسينا سوء واقعنا السابق.

لم نكن بخير يا صديقي. ولم يكن للخَرَف السياسيّ ثمّ المافيا البوليسيّة التي ظلّت تتحكّم في مقدرات البلاد ومصائر العباد صلة بالحبّ واحترام الحياة، ولا كان لكلّ شيء معنًى ودلالة. بل كنّا نعيش عبثًا على قياس تلك المرحلة. ولم يحافظ على ما ذكرتَ من حُبٍّ واحترام للحياة ورغبةٍ في المعنى إلاّ النساء والرجال، الأمّهات والآباء والإخوة والأخوات والأصدقاء ورفاق الدرب، الذين حافظوا على شعلة الحريّة والكرامة حيّةً في الذات والواقع. وهو ما يحدث اليوم أيضًا. فالمقاومة تتعدّد وتتجدّد. بل لعلّها تينع وتزدهر. ولن تنهزم ما لم تُسلّم بهزيمتها. وإذا كان منسوب

العبث قد تضاعف مرّات خلال هذه السنوات القليلة، فإنّه لا يجبُّ ما سبقه.

لكنّي أدرك حقيقة كلماتك لأنّي أفهم مصدرها وغايتها. وأكاد أقولها لنفسي أحيانًا لولا أنّي أقف قبالةَ البحر الذي وضعتَ كرسيّك أمامه، وألقي على النوارس النظرة التي ألقيتَ، فأطرب لصوت النخلة، تلك التي كانت تقول لك، ولعلّها تقول لك حتّى اليوم «غدًا أفضل». وإنّ من السهل عليك إذا اقتنعتَ بذلك أن تقتنع بأنّ اليوم أفضل من أمس، مهما بدا لنا هذا اليوم مُخيّبًا للآمال. ألَمْ يكُن اليوم «غدًا» بالنسبة إلى الأمس؟

غدًا أفضل يا صديقي. ذاك ما تقوله لنا صفحات كتابك، وأنتَ تغادر تلاميذك لتعود إليهم، مجدّدا الأمل في المستقبل الذي يمثّلونه، مُلِحًّا على أنّ تعليمَهم «صلاتُك»، مع الكتابة. من ثمّ ميزة هذا النوع من الكتابة المنطلقة من إزميل نحّات وريشة رسّام وعين سينمائيّ وحياة إنسان من لحم ودم وأحلام وهشاشةٍ بتّارة.

ها هنا، كتابةٌ حرّة، منسابة، منفلتة، مُقتَصِدة، تمتلك قدرةً عجيبة على جعل العيون تغرورق بالدّموع بعيدًا عن كلّ بكائيّة. لا تهتمّ بالماكياج البلاغيّ قَدْر اهتمامها بأدبيّة الصّدق، ولا تحفل بالتَّجنيس الأدبيّ قَدرَ احتفالها بالنّفخ على جمرة الحياة في «الوقت الميّت». كتابةٌ تمتح من «السّيرة الذاتيّة» بقدْر ما تقترب من أدب الرّحلة، وفنّ التَّرسُّل،

والمـذكّرات، والشَّـذرة التأمّليّـة، والقصّـة القصـيرة، والخـاطرة الفنيّـة، واللّوحة الشّعريّة.

كلّ التهاني يا صديقي على هذا الكتاب الجميل. فهو قريب منك ومنّا. نصوصه نفّاذة، قادرة على أن تفعل بنا الأفاعيل، لأنّها مجبولة من دم الكاتب ولحمه وأوجاعه ومسرّاته. فيها من الأمل والمرارة الكثير، لكنّنا أمام أمل يقِظ ومرارة مَرِحة تمنح الكتابة مذاقها الآسر، الموجع الممتع في الوقت نفسه..

تهانيّ الصادقة مرّة أخرى.

***

عزلة

قبل عام، قررت اعتزال البشر لأكمل كتابي. غادرت بيتي إلى سكن آخر، فقط لأكون وحيدا دون شراكة مع أحد في الهواء حتى. لم أقارن بين البيتين أبدا بل كنت سعيدا بالسكن الجديد بالنسبة لي والقديم بالنسبة للعالم. أمضيت عاما كاملا دون منغصات العيش. أطبخ متى أشاء وأجلس على الشاطئ لساعات طويلة. ولم يكن يزورني سوى قلة قليلة من الأصحاب الذين يمكنهم تحمل غطرستي ومزاجيتي والذين لهم قابلية لسماع جملتي الشهيرة «اليوم لا أريد أن أرى أحدا.. ربما غدا». ومع ذلك يتصلون ويأتون عارفين أني لا أجلس مع أحد لأصدر له أزماتي وحزني. ألتقي بمن أريد ساعة أكون مستعدا لذلك.

ورغم الجوائح النفسية والطبيعية أكملت نصي- الذي أريد، نصي المزاجي الذي يشبهني في الحالة والأحوال. وها هو بين يدي مقدمه ليرسل بعدها للنشر- ويرى عيونا أخرى تقرأه وأياد تربت عليه..

ومنذ أكملت الكتاب ضاق بي البيت، البيت الذي لم أكن أرى عيوبه مطلقا رغم أن أصحابي نبهوني لذلك. وكنت

أقول «لا يهمني شيء سوى إطلالته على البحر ووحدتي فيه». لم أنتبه إلا حين نعق غراب خلف جدار غرفتي، واكتشفت أنه عشش في صنوق المكيف الخلفي وصار له زوجة وأبناء. إذن، من دون بيوت العالم يختار هذا البذيء جدار بيتي!

أنا الهارب من غربان البشر ونعيقهم، تصبح عائلة من الغربان شريكتي في السكن !

هذا الصباح غيرت البيت وتركت الغربان لحال سبيلها، وعدت إلى سكني القديم حيث نعيق غربان بشرية مؤذية أكثر من تلك التي تركتها في صندوق المكيف. وعلى كل حال من الأحوال فإن الكتاب الذي رحلت لأجله اكتمل، ونعمت بسلام وسكون عميم لدرجة أن غرابا عشش في الجدار ولم أنتبه !

لا أعرف إن كنت حزينا لأني تركت سكني الصامت وعدت حيث البشر، أم أني سعيد لأن الكتاب سيرى النور وكان سببا في سكينة غراب وطمأنينته لدرجة أن يعشق ويتزوج وينجب دون أن يخاف يد العابثين!

الأمجد إيلاهي

نرجسيّة!

إن المعرفة بدروب الخطر، ومجاهل الحزن تجعل المرء يحسب ألف حساب قبل أن يخطو أي خطوة في أي اتجاه. خاصة إذا كان القدر قد وضعنا في مجتمعات تعتبر النفاق خبزا يوميا، وتسميه من باب نفاقها «مجاملات»، ولأني جاف كمناخ الخلاء، قررت اعتزال المخلوقات من هذا الصنف. وهم أكثر من دعاء الفقراء على الحكومات.

موجودون في كل ركن وفي كل مكان، والكل مع الكل ضد الفرد الوحيد. وأسرع تهمة جاهزة قد يقذفونك بها هي «التكبر» و«النرجسية». هكذا دون معرفة مسبقة..

إذا، تصبح النرجسية رديفا لكل «رجل على حاله، يحترم نفسه ولا يتدخل في شؤون الآخرين». وإلا عليك أن تصبح «متواضعا»، أي أن تعرض نفسك للجميع، أن تبيت منتهك المجالات، ضعيف الدفاعات ومكشوفا للعامة!

والعامة -أعزك الله - تخوض في كل شيء. خاصة مالا تفهمه ولا تعرفه، عدوة لدود للكتب وللإبداع وللاحترام ولكل ما يرتفع به الشخص عن الحيوان.. هذه الفئة (الضالة) تريد وتسعى دون غاية لمعرفة أخبارك كلها. خاصة أخبارك التافهة، من أين جئت، وكيف

تعيش، وحالتك المدنية، ونوع سجائرك، وكم راتبك ولون ملابسك الداخلية... وهم في أغلب الأحيان من يسعون لمعرفة ذلك بكل السبل، فقط ليؤثثوا جلستهم في المساء.

أحيانا أكون على ملل فظيع، فألاعبهم قليلا كالقطط، أشيع خبرا زائفا عني مع الإعداد جيدا لتكذيبه بالحجج متى اقتضى الأمر، وأطلقه. أجلس فقط مترصدا سرعة تنقل ذلك الخبر بين الناس، ربما أحتاج وقتها لمهندسين أكفاء لأسجل ذلك. كل الذين تربطني بهم علاقات وطيدة، يكذبونه من تلقاء أنفسهم ولا يكونون في حاجة لبرهان ليفعلوا ذلك.

إن هؤلاء الذين لا يملكون مساحة خاصة بهم وحدهم، ويعتقدون أن كل شيء في المتناول معرفته، والحديث حوله، واقتراح الحلول بشأنه هم أنفسهم من يطلقون تهمة «النرجسية» والتكبر على من يظن أن حزنه أثمن من أن تلوكه الألسن. وأن قبلاته وعناقاته ليست من شأن الآخرين. وأن المحبة خلاصة خاصة. وأن لحظات السعادة يقع التعتيم عليها حتى لا تنطفئ من نفخ الشامتين على فتيلها الهش.

كتابة أخرى

أشحذ قلمي للكتابة لكُم، غير معنيّ بهؤلاء؛ لصوص الفرح وقطاع طرق الشعراء. ببساطة العشاق وصدق الرّهبان وحبّ السنابل. تتبع كلماتي مسالك ترابية ملتوية بلا عَرُوض ولا تكلُّف كاذب، ولكنّها تَمُرُّ من غابات السرو والاكليل والعرعار والزعتر.

أكتُبُ بماء الجداول الصغيرة وبريش الطيور، أكتُبُ لكم بقلب عصفور. وأرمقهم بعينيْ ذئبٍ جريحٍ..

كلماتي سربٌ من الفراشات الحرّة المتراقصة والضائعة بلا طريق مُحَدّد. تضيء فيكرهها هؤلاء لأنّهم لا يحبُّون غير الظلام.. السَادة، يُحِبّون شعرا مُرَوّضا وكلاما مُقيّدا ومسَلسَلا، كلاما جاهزا في قوالب اسمنتية غليظة مّبنيَ ومُتراصّ كجدار عنصريّ بغيض.. وأنا أكتبُ لمن يسكنون منازل الطّوب المحدَودِبة كظهر جدَتي، أكتبُ لساكني المُخيّمات في برد وثلج هذا الشّتاء.. أكتبُ لكم أنتم كأنّ لا شاعر قبلي ولا طريق لأتبعه، ولا طريق للشعر عندي في فيافي الحلفاء والكلأ والأشواك الحادّة وأقدام الكلمات بلا أحذية تتلمّسُ مكانا للعُبور.. إنّهم يُرابطون في مخابئهم ليطلقوا النّار على زهرة بَرّيّة حتى تموت الفراشات ولا يبقى سوى جرادهم البائس، هكذا هم يُحبّون

الكتابة، دميمة وسيئة ومكروهة كالجراد تماما. انّها حربُ ابادة وحربُ مصالح حتّى لا يبقى شاعر واحد خارج مخابئهم يّكتبُ عن كلّ شيء جميل كفراشاته وألوانه وعن كل شيء قبيح كأوهامهم وجرادهم.

بلّور السماء

قبعة سعفيّة على رأسي، ويداي خلفَ ظهري، ممسكًا بعصاي أفقيًّا لتتقاطع مع طولي تمامًا وتنعكس الصورة على الظلّ لتشكّل بقعتين من السّواد تلتصقان بقدميّ. أوسّع الخطوات وأمشي ببطء في طريق ترابيّ. أزيحُ حجرا متخيّلا حجم أذاه. وأرفع رأسي بين حين وآخر فلا أرى سوى الغيم رماديّا على بلّور السماء الزرقاء.

على شقّ الطريق حاجز ترابيّ لحصر المياه إذا جاءت، نبت في عمقهِ عشّ أعشابٍ كثيفٍ. آخذ حجرا وأرميه في المنتصف فلا يتحرك العشبُ ولا تخرجُ منهُ أفعى ولا أرنب ولا حتى فأر صغير. فأشق بالعصا عمق الاخضرار الذي اتجه ناحية الصّفرة مؤذنًا باليَباسِ. أتركُ عصاتي بجانبي واسندُ ظهري إلى حاجز التراب المعشّب جاعلا من جسمي زاوية منفرجة في اتجاه الأفق. أضعُ رجلا على رجلٍ مع أفضلية اليسار على اليمين وأنزل القبعة على جبيني حتى تحجب النور عن عينيّ، وأنام. أسمعُ طرْقًا خفيفًا، أواصل نومي فلا باب موصد لنفتحهُ. تزيدُ شدة الضربات فأصحو. أرفعُ القبعة عن عينيّ وأستمتعُ بالقطرات تغسلُ وجهي وروحي وقلبي ببرودة ناعِمةٍ كالفرحِ..

هذا ما فعلتهُ عشرات المرّات وأحسستُ به، واليوم أقفُ في الشق المقابل من الأرض دون عصا ولا قبعة ولا ظلّ طويل. أحيَا لأكتب ما مضى، وفي عمق الكتابة أتوقف لأرى الغيم، ذات الغيم على بلور السماء الزرقاء.

غائم قلبي

قبالة هذا المحيط، لا أحس بشيء. لست مشتاقا ولا حزينا ولا فرحا ولا أي شيء مطلقا. مشاعري رصاصية كهذا الطقس، كالغيوم، كالطيور الساهمة على الشاطىء.

أذكر أن الثلوج انقطعت في تلك الشتوية البائسة وعوضها مطر كثير. وحال انقطاعه صعدت أمي تكنس الماء. كنت أجلس على مقربة من السطح قبالة حديقتها الصغيرة. فجأة تسقط على رأسي بركة بأسرها كانت أمي قد دفعتها في اتجاهي دون قصد.

كنت شاردا، لم أحس بشيء ولم أغضب مطلقا، وبقيت مدة غير قصيرة حتى نهضت لأغير ثيابي وأجفف شعري. والدتي بقيت أعواما طويلة تردد الحادثة بتعجب شديد..

تمضي الساعات، وأنا أجلس قبالة البحر. لا أراه ولا أمعن النظر فيه ولا أسمع أمواجه. روحي تسبح في مكان آخر غير هذا الجسد الغريب، تدور كعجوز مفجوعة في حقلها وقد داهمته الحرائق. أترك العالم وشأنه وأتمعن في الفراغ. لا ثلج هنا لأنزله من السطح ولا أمي هنا لتغسلني ببركة من المطر. ولا عيون أبي تسقي شرياني عطفا ومودة. لا شيء مطلقا سوى الشرود في المجازات البعيدة. غير أن

رهطا من المزعجين لا يحترمون السكينة يتصلون. أريد أن أقذف الهاتف في البحر وأعود لأنام. لكن هذه أيضا رغبة مستحيلة!

الوقتُ الميّتُ

هناكَ وقتٌ ميّتٌ. هذا الذي تتسَاوَى فيه الأشياء. وقتٌ لا تموتُ فيه ولا تحيَا. لا تُحبُّ ولا تكرهُ. لا تشعُرُ ولا تجوعُ. لا تريدُ شيئا وليس لديك ما تتخلّصُ منهُ. يمكنكَ البقاء صامتًا ليومينِ متتاليينِ. ويمكنكَ البقاء مُحدّقًا في اللاّ شيء. وقتٌ ليس فيهِ أفكار وليس فيه نوايَا وليس فيه تأمّل وليس فيه أملٌ. تجلسُ على كرسيّ أو على الأرض، تجلسُ في حديقة أو في مقبرة، تجلس مع صاحبكَ أو مع غريب، كلها واحد. وقتٌ تترُكُ فيه كل شيء حتى أحلامك وانتصاراتك وهزائمك. تستمعُ إلى الناس ولكنك لا تعي شيئا ولا تهتم لشيء. ومع ذلك تواصل آليّا فعل ما كنت تفعله زمن الوقت الحيّ؛ تبتسم وتضحك وتتحدث كما لو أنّه أنت. لكن في الحقيقة أنت خارج الدائرة تمامًا لكن شخصا آخر ربما طيفك أو لا وعيك يواصلُ الحياة عوضا عنك. أمّا أنا ففي الوقت الميّتِ، في عمقهِ تمامًا!

صورٌ في المخيّلة

فجأة، تحوّلت كل الأصوات التي كنتُ أحبُّها إلى ذبذباتٍ مؤذية وحزينة بما في ذلك صوتُ أمّي. وبعد أن فشلتُ فشلا مذلاّ في أن أجمع بقاياي وأنهض في شكل انسانٍ لأكمل المسير في هذا الدرب الموحش. أحاولُ أن أتعايش مع روحي أوّلا. أدرّبُها على الحبّ كما يفعلُ سائس الخيول وأحيانا كما يفعلُ مدربو الكلاب. وفي النّهاية لا أعرف النتيجة! فجأة لم أعد محاطا بأحد من القدامى. ربّما لم أعد أحبّهم وهذا الأقرب للظّن. أراجع صور الناس في مخيلتي كما لو كانوا في ألبوم ورقي. وكلما أنهيتُ حواري مع أحدهم أجده قد نكّس رأسه كما لو أنه يعتذرُ فأمزق الصورة، وأدير الصفحة التالية. أصلُ في نهاية المطاف إلى ألبوم صور بغلاف جميل ولكنه فارغ تماما، ليس فيه سوى الصفحات الشفافة تنتظرُ صورة داخلها. صورة سنلتقطها لأناس آخرين.

الهروب

قد تجيء فرصة واحدة للهروب من هذا السجن المظلم الحزين. في ذلك الوقت القصير الذي يعادل هرولة في اتجاه المنفذ الوحيد يحتاجُ هدفًا قصيرًا ومكثّفًا وشجاعًا. يحتاجُ فكرة واحدة لا تُنازعها أي أفكار أخرى. ذات اللحظة، يجتمع فيها القلبُ والعقلُ والخطوات. بلا خوف، بلا توجس ومن دون افتراضات. هكذا فقط يمكنُ القفز فوق الأسوار في اتجاه الحريّة، ربّما تصيبكَ رصاصة حارس أو قناص وأنت في الفضاء. لكنك ستموت حرًّا، وستصعد روحك إلى السماء دون أن تصطدم بسقف زنزانة مهترئة.

في الجهة المقابلة، تجيئك فرصة هربٍ وترفض، ترفض قطعيًّا وتجلسُ في ركن مسندًا ظهرك للحائط النّتنِ وكأن لا منفذ هناك، وتغلق عينيكَ أو تشيح بهما عن مصدر النّور. وفي حالة أخرى ستنادي الحارس لتعلمه بمكان تسرب الضوء. ويكونُ قلبُك متيَقّنًا من مسار العدالة، وأنك ستخرجُ للنور دون هرب ودون مجازفة. وهنَا أيضًا يوجدُ أمل في الحرّية. الحرّية التي قد تنالها بعد أن يذهب بصرك ويترهل جسدك وتصبحُ حرية فاسدة ومُعطّلة. وقد لا تراها مطلقًا وتبقى روحك مسجونة حتى بعد الموت.

أمّا أنا فتكفيني ثانية واحدة لأقفز، دون التفكير في الأسفل ولا في الهلاك ودون النظر إلى الخلف حتى. سأقفز عاليًا. مبتسما فاتحًا ذراعيّ أحضن الهواء الطلق بلا مبالاة المجانين وليكن بعدها ما يكون. إمّا أن أطأ الأرض وأركض بعيدا أين الشمس والماء وإما أن أسقط ميّتًا ولن أندم أبدا لأن الموت خلاص هو الآخر. ولكني لا أثق في حرية تأتي فاسدة ومعطلة أو لا تجيء مطلقًا. وإلى ذلك الحين أيها الحراس البؤساء، اعلموا أني سأغادر، زحفًا أو ركضًا أو قفزًا من علٍ. فقط أريد ثانية واحدة، فرصة واحدة لا غير!

انزياح

أقابلُ هذا المحيط منذ ساعتينِ، أراقبُ طيورًا غريبة. طيورٌ في حجم دجاجاتِ الوالدة لكنها تطيرُ. ألوانها رمادية بعض الشيء ومناقيرها ممدودة إلى الأمام كالسّهام. هذه المخلوقات تحلّق فوق الماء قليلاً ثم تجمع أجنحتها وتهوي في البحر، ثم تقلع من جديد. فركتُ عينيّ جيّدا ودخنتُ سجارة وواصلتُ المراقبة. حركة سريعة ببن التحليق والغطس والتحليق ثانية، ويبدو أن أجسامها تفرز نوعا من الزيت يمنع تبلل الريش، وإلاّ كانت قد هلكت منذ الغطسة الأولى. وكانت هذه الطيور ترى الأسماك من علوّ فتنقض عليها. فإن فشلت تحلق من جديد وإذا ظفرت تخرج ناحية الشاطىء. تكاثرت الطيور بين صاعد ونازل وبين ظافر وفاشل وتذكّرت دِلاءَ المزارعين ترمى في البئر أو الماجل صاعدة نازلة. وتذكرتُ أفلاطون وجدله الصاعد والنازل لكني طردته!

بدت هذه الطيور طائرات حرب حقيقية دون صافرات إنذار ودون ضجيج لكن قلبي المتضامن قام بالمهمة ذاتها. أجسام تتساقط في الماء فتحدث فرقعة صغيرة ولكنّ التكرار أزعجني.

تذكرتُ صديقًا سوريّا رأى بنايته تهوي بفعل صاروخ قال النظام إنه للارهاب وقال الارهاب انه للنظام ولكنّ صاحبي ماتَ بقلبه حينَ

هوى الطائر على ثلاثين عامًا من الغربة فسوّاها بالأرض لا يعني الآن شيءٌ أن نعرف صاروخُ من كانَ؟

أسماكٌ صغيرة تسمعُ دويّ صفارات الانذار يطلقها قلبي فتهبط بعيدا عن مدى المناقير الطويلة، وأخرى طائشة لا ترعوي فتصعد عاليًا، عالقة متخبطة حيث اللامفرّ.

أطفالٌ في رأسي يصرُخونَ، نساءٌ يولولن وشيوخ يرفعون أكفهم عاليا.

يعلو الموج تدريجيّا وتبدأ الطيور في المغادرة حينَ حجب الزبد نقاوة الماء، واختلط صوت الهدير بصوت قلبي فقررت بدوري المغادرة.

الأحلام

لم يكن هناكَ ما يُزعجُ غيرَ الخَواء والفراغِ الرّهيب، ظلالٌ تتحركُ حولي وتوهمني أنها حقيقة، وأنا من بابِ معرفتي بالظل لا أتعجّب مما يأتيهِ. كائناتٌ صديقة كالنور تمشي جيئة وذهابًا تحاول أخذي إلى موضع الشمس لكنّ الظّلام ملأ المكان.

حين يداهمنا الليل فجأة فعلينا النوم، أو الاستكانة للذاكرة وما تقوله العاطفة؛ أشغّل أفلام الذكريات تباعًا دون توقف. وتعبرُ المشاهد خلف بعضها ولا تتوقف إلاّ عند الأهم. والمُهم أن شيئا لا يستطيع الولوج إلى رأسك ليوقف استرسال التّدفق العالي.

علّمتني الفلسفة أن الكوامن الداخلية يمكنها أن تعوّض الواقع لساعات أو أيام وأنا هربت إلى كوامنِي. قلبي وطنٌ ليس فيهِ أغراب، وطنٌ للجمعِ الذي اختاره دون ميز ولا تفرقة. بلا جوازات سفر ولا بطاقات هوية ولا لون ولا دين؛ أن تكون حبيبي فأنت في وطنكِ الأصلي ولا تحتاج تأشيرة للعبور.

امرأة داخل الفلم تستحوذ على جل المقاطع؛ تتحرّك في المكان بإمكانيات ملائكة، خفيفة الفرجة مثل مشاهدة فراشة في حقل أو مراقبة شروقٍ قادم على مهل من خلف جبالٍ وتلال. امرأة حسب ما

تقول الصورة ولكنّي أقول أنها طيفٌ وأغنية. حين اقتربت رأيتُ قلبَها من الداخل فتساءلت: أَهذا قلبٌ أم ميناء؟

طارت نوارسُ كثيرة حتى تغطى الأفق بالكامل، كنت أجلسُ على المحيط ووقفتُ فانتهى المشهدُ ليأتي آخر؛ شيخٌ يمضي داخل السهل وطفلٌ يركض خلفه، وأمطار تنزل وتتوقف في حالة غير طبيعية، أمطار على رأس الصبي والصحو يرافق الشيخ إلى ما لا نهاية، ضاع المشهد حين صار الوحل يعيق الحركة واختفى الشيخ وراء الشفق.

أصدقاء من أهل قلبي يظهرون، متباعدين لكنهم يُلوّحُون لي من خلف الظلال التي تغطي المكان، وأنا أردّ التحية باسمًا وأحاول الاقتراب وينتهي المقطع إلى الذاكرة. أستند على فؤادي وأنهض لأقول لهم تعالوا لكن الظلام يعود، أتجاهله وأعيد فتح رابط القلب من جهة المَحبّة فيُشع المكان....

غناء

أستمعُ طول الطريقِ إلى أغنية ليبيّة هزّت شغاف القلب، غنّيتُ معها بأعلى الصوت ورددتُ بما أوتيتُ من جهد وصوتٍ قبيح. ولكنّي وحدي؛ أنا من يغني وأنا من يستمع لي، وطالما أحس بالطرب فمعناه أن الأمور جيدة. والأهم طبعًا أن لا أزعج أحدا أو واحدة فتطالني تعاليق لست أحبها. ردّدتُ بأعلى ما يمكن، محاولا أن لا أنسى كلمة واحدة ليستقيم اللحن الذي أنا متأكد أنه لا يشبه لحن الأغنية ومتأكد من ضياع الطبقة وهذا أيضا لا يهم كثيرا:

«لا ما تخافي...

ولا يجيب عقلك غير ودي الصافي...

إنتِ شراعي ومركبي ومجدافي..

وانت نسايم رحلتي والعُونْ».

ولأن لا مركب لي ولا علاقة تربطني بالبحّارة أبدا، فقد توقفتُ عند كلمة «العون» وهي الرياح الخفيفة التي تساعد ولا تعطّل. و«للعون» معنَا حكاية طويلة، فقد كانَ صديق أبي وهو يذري القمح لتتطاير الحبات إلى كومة مستقلة «العرمة» ويذهب التبنُ إلى ناحية مغايرة. وكان الطقس كلما بهُتَ وهدأ منح والدي فرصة للراحة، ولكن يبقى صوته القوي يجلجل في كل مرة وهو يتساءل «تحرّكش

عـون؟» وحـين نقـول لـه نعـم، يسـرعُ إلـى المنـدرة لواصـل التذريـة سـعيدا. فكّـرتُ في كـل ذلـك دفعـة واحـدة؛ وتسـاءلت أيضـا «ثمـاش عون؟» ولكن كل شيء باهت وكل شيء صامت ولا إجابات تـأتي، فواصلت الغناء.

المقاطعة

علمت نفسي شيئا يشبه اليوغا، لكنه ليس كذلك تماما ولا أعرف سبب تعريفي له بهذا الشكل. المهم أني تدربت منذ سنوات طوال على إلغاء كل ما لا أريده أو ما يسبب لي إزعاجا من أي نوع كان. كانت البداية مع «الحساسية» التي رافقت حالتي النفسية السيئة آنذاك. حساسية من الفواكه بأنواعها، تتسبب لي في إغماء وانتفاخ في العينين. هكذا، اكتشفت وحدي، استشرت الطبيب فتعجب من الحالة، لكنه نصحني بالتوقف عن أكلها وقتيا حتى التثبت جيدا. في طريق عودتي من العيادة قررت «المقاطعة»؛ مقاطعة الفواكه على بكرة جدها الأول. ليس ذلك فقط، بل أقنعت ذاتي أن هذا الشيء الغريب المتدلي من الأشجار والطالع من التربة ليس سوى ديكور للطبيعة لا غير. هكذا توقفت، أصحابي يعرفون ذلك جيدا، حتى أنهم يتساءلون كيف لا أنسى وآخذ قطعة تفاح أو خوخ من الطبق. لكني كنت أجيب بسخرية، هل يعقل مثلا أن أقضم قطعة من الكرسي أو الطاولة! أشياء لا تؤكل، إذن هي مثل البلاستك أو الخشب، تزين الطاولة فقط.

هكذا عممت التجربة، تجربة مقاطعة المضار. قاطعت الخونة بنفس الطريقة والأغبياء وعديمي العاطفة وكل الذين لم أستسغ

وجودهم في حياتي. أغمض عيني قليلا ثم أقول بأن لا وجود لهم، فيتبخرون.. حتى إذا عبروا من الشارع أو دخلوا المقهى لا أعيرهم انتباها. فهم غير مرئيين بالنسبة لي. مجرد ظلال وخواطر مارة مع الريح والضوضاء. أنسى معهم الذكريات المشتركة وقد أحذف بعض الذين يكثرون من ذكرهم ولا يرعَوُون حين أنبههم لكونهم يتحدثون عن شخصيات متبخرة.

أحيانا أجاهر بذلك، أقول لبعضهم أن نهاية ما يربطنا هو الغربة مثلا. لا يصدقني عادة. لكنه يصدق حين نفترق فيتبخر من حياتي. وذلك كله بسبب قناعتي بأن العمر قصير ولا يجب تبذيره مع من لا يستحق ثانية واحدة منه. وهذا العالم مليء بما لا يصلح لي وبي، وما لا يليق. وممتلئ بهؤلاء الذين لا نتفق معهم ولو تحاورنا لسنوات. لا أحب الحوارات العقيمة. أنهي كل شيء بسرعة فائقة مهما كانت عميقة، أو ظن البعض أنها كذلك. ببساطة ومن اللحظات الأولى نفهم إن كنا سنواصل أم لا. بدون ثرثرة وإضاعة للزمن الثمين وبدون ألم ولا حزن. أتحول من مجرد كائن موجود، إلى الوجود في حد ذاته.

سويعات قليلة قد تكلفني أعواما من القرف، وهذا الذي يسمونه «ماخذة بالخاطر» بلهجتنا التونسية و«عدي حالك» كما يقولها المشارقة ليس لها مكان في قاموس عمري. وأضيف أن سبب خراب

هذا العالم ينبع من عمق هاتين اللفظتين المهادنتين والمتخلفتين أيضا. والتي تعني أن أحاور تافها لمدة ساعتين، فقط لأنه سيشعر بالوحدة لو تركته وانصرفت والحال أن مكانه الطبيعي هو الوحدة حتى لا تتسرب عدوى تفاهته إلى العالم البريء في الجوار.

الحق أني أشعر ببعض الانزعاج أحيانا، والذي يذهب بسرعة، لكنه أفضل بكثير من الندم والحزن واتهام النفس بالغباء وقلة التجربة. وهو أفضل بكثير من أن تترك مساحات واسعة من ذاكرتك ليعبث بها من لا يستحق مجرد نطق اسمه في الفضاء. مع ذلك وكله، لي صحب ورفاق وأحبة في كل مكان. هم قلة قليلة ولكن «عديد الأكرمين قليل».

وحدي

كنت أحتاج إلى كل المساءات وحدي، أجلس على كرسي قبالة ما يطلق عليه ظلما مسمى «المحيط». أجعل بيننا مسافة للمراقبة، أرتخي وأصغي جيدا إلى أكبر أوبرا على وجه الكون، ملايين الكمنجات والنايات لمعزوفة واحدة، لا صوت يتقدم ولا آخر يتأخر. ولا مجال للسعادة ولا للحزن، هنا يوجد شيء واحد أحتاجه ألا وهو «التأمل» في عمق هذا الكائن المايسترو. أنا جمهور المحيط الوحيد، أراقب زيه الموحد الذي يستمد شرعيته من لون السماء دون وساطات وأستمع إلى معزوفة ترمم تشققات الروح.. وحين جاء السؤال «أين كنت؟»، قفزت الإجابة مباشرة: «لم أكن أبدا!

ليس لأنهم أكثر ذكاء وفطنة ولكن لأنهم لا يقفون عند أي خطوط حمراء، لا أخلاق تردعهم ولا قلوب تذبل ولا أياد ترتجف!

هكذا يمسكون العالم من قفاه، انهم أنياب ومخالب. في ذات الوقت يقف الطيبون على ضفة المعركة خاسرين دون نِزال. يحصون أعداد الجرحى والقتلى بين الأشرار والأشرار وينتظرون من سيمزق أحشاءهم مجددا بعد أن تهدأ الحرب.. وأنا مللتُ الأغبياء.

موّال لا غير

أمشي على الشاطئ الطويل بلا نِيّة في السباحة. أمشي ساعة كلّ مساء لأهضم ما قرأته في الظهيرة. وأحيانًا، ككلّ مرة يحيدُ عقلي عن الموضوعِ لأقع في شِباك الذكريات.

كانَ البحّارة على طول الشاطئ يعدّون مراكبهم الصغيرة للإبحار، وكان أن رأيتُ شيخًا يتعارك مع شباكهِ الملتوية. وقفتُ أمامه وأمسكت طرف الشبك وقلت لهُ «آسف يا صديقي فأنا لا أعرف تخليصها وإلا كنت فعلتُ»، فابتسم وقال: «أمسك الطّرفَ فقط وأنا سأقوم بالباقي». الحق أنّ أصابعه التي تختزلُ زمنًا بأسره قامت بالعمل سريعا. فساعدته على جمعها في القارب ثم انصرفتُ. ناداني بصوتٍ رقيق أن أفطر معه، فاعتذرت منه وَوَاصلتُ المسير.

لم تكن فكرةُ المشي والركض على الشاطئ تستهويني، ولا تخطر على بالي مطلقا منذ جاء بي حزنِي إلى هذي البلاد البعيدة. وكنتُ أكتفي بالجلوس على كرسي لأقرأ أو أكتب كما تعلمون. وبقيَ احساسي بجسدي مجرّد فكرة خرقاء لا تساوي شيئا فقد كان تركيزي كلّه على تنمية هذا العقل حتى لا يعود إلى الخلف. لكنّي منذ أيامٍ خلت، ركضتُ مسافة بسيطة إكراما لخاطر ولد صغير. وهذه المسافةُ الصغيرة أحالتني مباشرة على واقعٍ لم أكن أحسب له حسابًا

مطلقا. وقفتُ والعرق ينز من كل مكانٍ وقلبي يكاد يخترق ضلوعي وركبي تيبّست. هكذا؟؛ أنا الذي نسيت الرياضة منذ زمن بعيد، صرت مجرد كومة بشرية على كرسيّ قبالة البحر لا تتحرك إلا لتعود إلى البيت. أنا الذي أذكر طفولتي وقد كنت أسابق كلبي وألحق به!

أصدقكم القول كما كنت أفعل دومًا؛ لقد حزنت. حزنت لأني لم أعِر الوقت أهميته، حزنت لأني تجاهلتُ الجسد الذي يبلى حين يطويه النسيان ككل شيء.

هكذا أصبحتُ مدمنا على الركض كل مساء، وأمشي حين أتعبُ ولا أنسى أن أفكر في كل ما يزعجني لأطيل مسافة الركض وأفكر في ما يسعدني عند المشي وهو قليل.

بعد أيام من النشاط أحسّ أني تحسنت كثيرا، حتى نومي لم يعد متقطّعا. وسأواصل تدريب هذا الجسد على الثبات كما دربت روحي سابقا. إنه من المعيب أن تكون الروح أنيقة والجسد متهالك. تماما كأن يكون الطعام اللذيذ في إناء سيء.

هكذا بعزم، أعيد الهرولة وأتذكر جمهرة السيئين الذين عرفتهم في حياتي فأزيد السرعة حتى أتوارى عنهم بعيدا في الخيال.

وسامةٌ صباحية

هذا صباحٌ وسيمٌ كَصاحبي، أتممت قراءةُ رواية «الرسام تحت المجلى». طردتُ ظِلالاً كثيرة من عينيّ، وشكرتُ صديقي.

فكرتُ في كلّ ما مرّ من أحداثٍ عصيبة وتناسيتُها عنوة.

وحين لم يعجبني ثوبٌ مرمي على حقيبة السفر ذهبت لتعديل وضعهِ القانوني وانتصابه الفوضوي خارج مجالهِ. في أسفل الحقيبة وجدتُ كنزًا قفزتُ له فرحًا، وجميل أني ما زلت أستطيع القفز بعد كل ما كان من الحياة. وجدتُ كيسًا من «النعناع» المجفف. أمي وضعته ونسيت اخباري عنهُ. عدتُ بعد شم رائحته إلى حديقة البيت. كانت الوالدة تقول لي دائما: «أنا أقطف «نعناعي» لأجل شاي أبيك فقط، أحبّ بقاءه في الحديقة». تذكرْت، يا لِوجع الذكريات..

خرجتُ ناحية المطبخ ممسكا الكيس بإحكام كمن يمسكُ مسدسًا. وضعت إناء الماء على النّار وقلتُ لنفسي مبتسِمًا:

«الآن نعود إلى الدار»

إذن دونَ حاجةٍ كبيرة للسفر، جلست بكوب شاي قبالة حديقتنا وألغيتُ زيارة البحر. في مدينتي جبل وغابة والبحر تلزمه رحلة ومشقّة هكذا قررت ليكتمل مشهد الحب.

ولأن صاحبي يشعلُ شارة خضراء خاطبته. وتبادلنَا التحايا الصباحية، فبيني وبين سليم دولة مودّة ومحبة وذكريات.

صباحٌ وسيمٌ معطّر بنعناع البيتِ، النعناع الذي يُقطف فقط لأجل أبي، يستحقُّ أن يُطبخ لأجله الشاي!

صباحٌ رائقٌ كان يلزمه الكثير من الفلسفة ليُفهَمَ.

ولأني لا أعرفُ من الحجر الصحي سوى ما يحبّرهُ الأصدقاء في هذا الفضاء، وما أقرأه من أخبار. هذا لأني في حجر صحّي منذ سنوات. حتى أثناء أيام الدوام كنت أصاحبُ نخلةً في مزرعة بجانب مدرستي؛ نخلة شهيرة عند الزملاء. يهاتفني المدير إذا احتاجني ويمازحني بالقول «اشتاقت لك النخلة» كلما هممت بالخروج. ومساءً، أكون على موعد يومي مع صاحبي الشاطئ، حيث جلستنا تطول وتقصر حسب المزاج. وهناك أجلس لأقرأ أو أكتب أو أسرح في الفراغ.

لاشيء تغيّر سوى مواعيدي مع السيد المحيط، فقد أصبحت أزوره فجرًا وأغادر حين ترتفع الشمس.

اليوم أيضا كنتُ هناك، على ذات الكرسي أراقبُ الموج يطارد بعضه وينتهي كلّه إلى العدم ليُسحبَ من رجليه إلى حيث كان..

الحصار الوبائي

لقد انتقلنا من مرحلة الحصار المفروض من الخارج إلى الحصار الذاتي الاختياري. دولٌ بأسرها خارج الجغرافيا والعالم. وحيث بلغت نسبة العدالة العامة معدلا عاليًا جدا حين تعمّم السجن على الجميع دون استثناء. وتحولت البيوت المدنية الوديعة إلى معتقلات ومنافٍ كما لم يحدث في أي زمن فائت.

لا أحد يعلم متى سينتهي كل هذا، وهذا أيضا حكمٌ لم تشهده البشرية مطلقا؛ سجنٌ إلى أجل غير مسمى!

إنها حرب جديدة، ليست بين إنسان وأخيه وإنما بين هذا الأخير مجتمعًا في بعضه نوعًا وعرقًا، وجرثومة تطلب رأسه!

قوة احتلال جديدة، تحتقر الكل وتُنكّل بالجميع دون تفرقة. لو طالت الأزمة ستسقط دولٌ في مستنقع المجاعات وستفرخ الجراثيم في كل مكان وفي كل جسد. ستتغير خارطة العالم وفق انتشار الوباء لا وفق التكنولوجيا والصحة والتعليم. هنا ستنتصر الأرياف البعيدة والصحارى والانقطاع وستنهزم ناطحات السحاب والمسارح وملاعب الغولف.

لم يستطع العالم إيجاد حلول للحروب والدمار وانتشار الشر في الكون، وها هي جرثومة صغيرة تنهي كل ذلك وتفرض السجن على

الجميع.. سجن قاس جدا، ولكنه عادل. والمصيبة اذا عمّت خفّت، تساوت الرؤوس أمام المرض. وتلاشى سؤال الهوية: من أين أنت؟ وحل مكانه سؤال الوجود: هل أنت مريض أم معافى؟

حجر عاطفي

عبر الهاتف جاءني صوتُ الحبّ دافئا وودودًا كمَا علّمتنا فيروز ذلك منذ أفقنَا على صوتها الحلو.

أمي تطلبُ مني ملازمة بيتي وأنا أطلب منها ذات الشيء، فجأة تلتقِفُ البَهيّة لحظة بينَ ثانيتين، استراحة بين خفقة قلبي والنفس وتقول: «متى تعود؟»، ولأنها لا تريد احراجي مطلقا تضيف: «المهم السلامة، كلها بلاد ربي».

أطمئن قلبها على صحتي وأتصنع القهقهات التي تخرج ممجوجة وملوثة ومجروحة كاسطوانة قديمة وأخبرها أن الوضع ربما يطول وأن عليها أن تكون بخير لأجلي، هنا يرغب كل منا في انهاء المكالمة ولكني أقول بصرامة تحبها «نحبك برشا» فتضحك بصدق وأسألها عن المطر فتقول إنه قليل ولكن السحاب في الجو ينذر بالغيث وأخيرا نرجو السلامة لبعضينا وننصرفُ.

في الأثناء أرى جمهرة من المخاليق تطلب منّا عدم العودة، ويتكلمون بتعميم كبير وصرامة من يملك مفاتيح المطار. أضحك من قلبي! أي والله! ما معنى أن لا نعود؟

أنا شخصيا لن أعود لأن الملاحة الجوية معطلة أولا، ولأني آمن ثانيا. وثالثا، هذا العزل كان جل ما أتمناه حتى أكمل مشاريع كتابة

عالقة في الحاسوب منذ وقت. وإذا ما قرّرتُ العودة فلن تمنعني فايروسات الكونِ عن بلادي!

وباءُ الأحزان القاتل

يبدو أنها لحظات مختلفة، ومضطربة وغير متماسكة وهذا راجع بالأساس إلى فقدان الإحساس بالأمان. الأمان الذي كان يوفرهُ الآباء للأبناء فينامون على طمأنينة، اليوم لم يعد الأب قادرًا على ذلك. وإن تصرف بتلقائية وحاول بث الشعور ذاته فإن شيئا في عينيه سيفضح ذلك الزيف كله؛ إنه الخوف.. حتى الأب ذاته كان يستقي الأمان من منهل معيّن، يستقيه من الأقارب ومن أبناء العمومة ومن والعدالة والشرطة والحكومة والعلم والطبّ.. وهذا أيضا لم يعد متوفرا وقد بان بالكاشف أن الأمان غادر كوكب الأرض! إن عدم القدرة على فهم مجريات الأمور والسقوط في متاهة اللا معنى، والنظر يوميّا إلى مواكب الموتى تمضي وسط شوارع مقفرة أمرٌ مفزعٌ حقّا.

يموتُ الناس كل يوم منذ وجدوا على هذه الأرض، فالواحد منا يحيا وهو متيقن من زواله في لحظة وفي كل حين. تقول الحروب آلاف الناس وكذلك تفعل الأمراض والحوادث. والموت منذ وعينا وهو يحصد دون توقف، ومع ذلك لم نخف مثل اليوم. هذا لأن الحوادث منفصلة والأمراض كذلك ولأن صخب الحياة وأوهام البقاء حجبت عنا التفكير في الموت. وفكرة الحياة تطرد الفناء إلى

حين حضوره، أما اليوم فالخوف مأتاه الفراغ وشعور الفرد أنه مستهدف دون سواه، التقوقع ومشاهدة أخبار الموت هو شيء أسوأ من الموت حقا.

فقدت الرغبة في الكتابة، لكن رغبتي في القراءة زادت. أحاول الاطلاع على عوالم أخرى بلا حظر تجول ولا شوارع فارغة فأجدها في الروايات. أتصل بالوالدة ولا أزعجها بالنصائح الفارغة التي ترفع ضغط الدم فهي تعرف كل شيء. أسألها عن المطر وعن حديقتها وأحاول انتزاع ضحكتها عنوة، وأتفّه لها الغربة وأُوهمُها أني سعيد. وقد أكون كذلك فعلا وأحاول أن لا أكون طرفا في نزع أمانها الداخلي؛ هي تقول واثقة أنها ليست خائفة على نفسها بل عليّ. فأقنعها أني بأفضل حال.. وما دام الوباء على عهده معنا ولا يطرق أبوابنا فنحن على العهد لا نخرج إليه.

ممرٌّ آمن

أفقتُ متعبًا قليلاً، نظرتُ مباشرة إلى أكياس الكتب التي أهدانيها شوقي العنيزي فابتسمتُ. وكنتُ منذ الأمس قد أخبرتُ مدير مدرستي مازحًا بأني سأضع نفسي في الحجر حتى أكمل قراءة الكتب.

أعددتُ قهوة العادة وشغلت فيروز من هاتفي كعادتها، لكن صوتها انقطع. نظرت الى الجوال فَلاَحَ اسم أمي تتصلُ. مررت اصبعي على الشاشة كأني أمرره على تجاعيد يدها الحبيبة وقلتُ مباغتًا: «صوتك أجمل من صوت فيروز، واسمك في شاشتي يجعلني أطير». ضحكت وقالت لي بأنها تفرح حين أكون سعيدا. وكعادتي ورّطتها وقلت: «أنا بخير طالما أنت كذلك، وحين تريدين معرفة حالي فعليك النظر إلى حالك». اطمأنّت الى حالي وارتحتُ حين مرّت خدعتي واستطعت إقناعها أني بخير أو ربما توهّمت ذلك فليس هناك غريب بخير! المهم أن سَكِينةً طفيفة حلّت بقلبي.

تمعّنت في الكتب الكثيرة والأثيرة، واخترتُ «جان دوست» لأسباب كثيرة أولها أني أبحث عن «ممر آمن» وثانيها أنه يشبهني في الغربة والشعور بالمرارة..

وضعت الكرسي على الشاطئ، وتسلحت بعلبة سجائر كاملة وجلست قبالة السيد المايسترو. كان البحر هادئا ولطيفا. وكان

واسعا كحضن أمي.

فتحتُ الرواية التي على غلافها شيخ يشبه والدي، فلعنت الموت والفراق وجان دوست ثم بدأت القراءة. ومنذ الصفحات الأولى تغيرت ملابسي الرياضية وحلت عوضا عنها ملابس كردية خالصة. تسلقت الجبال وسقطت على الصخور وأسندت ظهري إلى أشجار الزيتون. سافرت إلى «عفرين» ومنها الى حلب ثم الى «شرّان». ركبت عربة الجرار مع النازحين وبكيتُ مع النساء والأطفال. تمشيت بين مسالك الأشجار مع «كاميران» (الطفل بطل الرواية).

لم تكن رحلتي الى الحرب سهلة، فقد اقتادني الكاتب مكبل اليدين الى هناكَ..

ورغم كل العذابات التي رأيتها، طارت نوارس كثيرة فوق المحيط الشفّاف وتذكرت أصدقاء لي عرفتهم في ترحالي وانقطعت أخبارهم. تذكرت «أزاد» و«فطيم» وحديثنا عن الضيعة أيام السلام.

مائة صفحة من الحرب انقضت ومازال أمامي تسعون مثلها. توقفت عن القراءة وعدت الى بيتي بشعورين متنافرين جدا. شعوري بالسخط من الغربة والبعد والوحدة والشقاء والحزن على الانسان المدني المزارع البسيط حين يحيط به الموت من كل اتجاه وشعوري بالراحة لأني عدت الى القراءة بنهم ومنها الى الكتابة حيث لا سبيل للنجاة دونهما.

قاتلُ الأحلام

أفقتُ دونَ أن يرنّ المنبّهُ، تجرّدت من ملابسي ودخلتُ تحتَ مرشّ الماء في غرفة الاستحمام. كانَ دافئًا فجلست القرفصاء وأغمضت عينيّ. يدٌ من الخرافات مُدّت نحو أعماقي ونفضت حزنًا كنتُ نسيت حتى المُتسبّب فيه. دقّ قلبي بقوّة كمن يزيلُ الصدأ عن باب قديم. أطرقتُ السمع للماء والذكرى.

كنتُ لملمتُ جراحات كثيرة تسبب فيها هذا القلب لنفسه، بعضها للحب وأخرى لمن يحبّ، وغادرتُ. كانَ المنفى هو أقل حكم قد يصدره الواحد على نفسهِ المتأذية من الناس. وكانت الصحراء.

عامانِ أجلس مع روحي أؤنّبها، وأحيانًا يرق قلبي لها فأعطف عليها وأغني لها حتى تنام. رافقتني قصصي الكثيرة، والذاكرة مخزنٌ عظيم يزودني بالحكايات كلّما تذكرت وحدتي أو تذكرتني.

أنفث دخاني عاليًا وأتكلم مع كثيب من الرمل فيستوي في الصباح مع الأرض ويمّحي تمامًا. غربانٌ كثيرة نعقت وطارت عاليًا حين سمعت شكواي من الكون.

تزداد حرارة الماء لتصبح مؤذية، أمد يدي للصنبور فأغلقه وأستعد للخروج من الذكريات ومن الحمام لا غير. وأغيّر رأيي لأمضي إلى البحر.

لا يوجد صياد واحد على مرأى العينِ، فقط بعض نوارس حزينة تجتمع على الشاطىء هازئة من الحجر الصحي. أبتعد عنها مسافة محترما قانون عدم التجمهر وأجلس. تربطني الآن بهذا المحيط ذات العلاقة مع الصحراء آنذاك، غير أن المحيط يغضب ويحزن معي ولكنه لم يجفّ مطلقا. هذا الذي في بطنه آلاف الضحايا لا يمكن أن يكون له قلبٌ كصاحبتي الصحراء.. رددت على مسامعه «أنت قاتل» وعدتُ إلى خلوتي أكتب.

أكتب رسالة... هذي الرسالة:

لا يعنيني الطقس في الخارج إن كان غائما أو باردا أو ممطرا أو كلهم مع بعضهم البعض، بقدر ما يعنيني أن أرى وجهك صافيا وابتسامتك تملأ مجال نظري وعيناك هما المساحة الوحيدة المعدّة لأجل الفرح.

ولا يهمني كثيرا أن تصير كل الفصول ربيعا، وأن تغطي الأزهار الشوارع وتخرج من محابس الشرفات وأن تغني العصافير على كل خيط كهرباء وكل غصن وكل فضاء، بقدر ما يهمني أن لا أرى علامة حزن واحدة في مقلتين الشفافتين كصفحة ماء.

ولست أطالب بأي شيء لنفسي، سوى أن لا أشاهد دمعة واحدة على خدك. لأنها ستتحول إلى طوفان عظيم يغطي الورود ويخنق العصافير ويؤجل الربيع إلى غير علم..

أودية التذكر

البارحة تساقط مطر كثير، أفسدَ عليّ قهوتي التي سافرتُ مسافة طويلة لأشربها على المحيط مع سادة بيض قادمين لتمضية الوقت في منتجع كبير يُوفر لهم كلّ شيء، فلا يعرفون من البلاد سوى المطار.

أجلس قبالة الشاطئ وأطلق العنان للخيال وللذكريات، أحيانًا أبتسم وحدي وأغلبُ الوقت أمضيه غير شاعر بشيء أو لنقل غير مهتم بشيء سوى العالم الذي يسكن دماغي بما فيه من سوء ومن جمال.

تساقط المطر على المحيط وعلى الجدران وعلى رؤوس السادة البيض الذين هربوا إلى الداخل مقهقهين كالمعاتيه فيما أسندت ظهري الى الكرسي مقرّبا اياه الى عمود المظلة وواصلت التحديق، قطرات بريئة تسللت الى الفنجان، ربّما هو حنين الماء للماء، وربما محاولة مقصودة من الطقس لتعكير مزاجي أو ربما لا.

هبط المغرب قبل أوانه، واختفت الشمس وتباطأ نسق المطر فقررت العودة إلى البيت. في الطريق أسير ببطء، أمسك يميني وأركز مع الأضواء، طردتُ الخيالات جميعها وشغلت الراديو الذي حذرنا من نزول الأودية ووجوب الحذر!

تذكرت صديقين لي من البلاد البعيدة، فقررت الاقامة عندهما حتى مجيء الغد. جلسنا إلى منتصف الليل نضحك من حالنا المعطوب مثل بلادنا ثم استسلمنا للنوم.

أفقت باكرا، أدرت مفتاح سيارتي الرفيقة واتجهت الى العمل، في الطريق فكرت في الأودية. الأودية الحقيقية، تلك التي أعرفها جيدا والتي يمكنها جرّ شاحنة كبيرة الى المجهول، تلك التي سحبتني طفلا مسافة غير هينة وأدارتني على رأسي وظهري كأنها تقلي سمكة في الزيت، ولم أفق ساعتها إلا على أصوات الناس من حولي يتساءلون «ولد من هو؟ ليش يقص الواد وينو أبيّو؟ حيّ ما ماتش». كان ذلك منذ زمن بعيد حين قطعت الوادي الهائج متجها إلى المدرسة، خائفا من الغياب ومن أبي ومعلمي.

مشيتُ نصف المسافة، كان عدد السيارات متواضعا وكنت تجاوزت الخابورة بكيلومترين حتى اعترضني الوادي واشتعلت الاشارات الأربعة وبدأ أصحاب الشاحنات والسيارات العالية في العبور وكانت تتحرك قليلا في اتجاه التيار. آنذاك قررت الرّجوع، وعدتُ إلى بيتي..

ما زلت أخافُ على قلوبٍ قليلة قد تتألم لو جرّني الوادي بعيدا، وكنتُ في زمن سابقٍ قد وعدتُ أبي أن لا أتهوّر ثانيةً. وخفتُ من الناس الذين قد يتساءلون ولا يجيبهم آنذاك أحد!

أمّا الآن فالعملُ، كل العمل على إعادة ترميم الرّوح المعطوبة كدبّابة بعد حربٍ. ومن ثمّةَ ستأتي أحداث كثيرة وشخوص ومواقف وأحزان لا تريدُ تركي وشأني. إلى ذلك الحين ستكون دبّابتي جاهزة لاستهداف الحزن بأكثر من قنلبة وبدقّة مُقاتل ناجٍ من الحرب وحده!

جنون وهمي

نمت جيدا البارحة، واستيقظت باكرا. على عادتي أفقت سعيدا لأني على قيد الحياة. بحثت عن هاتفي تحت المخدة وأدرت أغنية لفيروز وبقيت مستلقيا لدقائق أحاول فهم سبب غبطتي تلك. دخلت الحمام سريعا ثم انتقلت إلى المطبخ أعد فطوري والقهوة (قهوة أرسلتها أمي إلي). وقد تعودت استضافة صاحبي كل سبت في بيتي، أفطرنا معا وتمازحنا فقال لي إنه من الجيد أن أكون بهذا المزاج الجيد كل صباح وأن ذلك يفرحه. تركته سريعا دون أن أنسى المرور على قارورة الغاز واغلاقها، ثم ودعته وخرجت. دقائق وكنت على قارعة الطريق أنتظر سيارة تاكسي لتقلني إلى المدرسة. وقد أصاب بالحزن إذا تأخرت رغم أن جحافل الزملاء سيمرون بي لا محالة، لكني لا أريد..

وصلت سيارة التاكسي، حييت السائق مبتسما. فأمطرني بوابل من التحيات والابتسامات. كان صباحا حارا، أحسست بذلك حين دغدغني هواء المكيف البارد. أرشدته إلى المدرسة وأرهفت إلى أم كلثوم في الراديو، فما كان منه إلا أن صعد في درجة الصوت بكل تهذيب. هنا بدأت الغناء معها بهدوء خوفا على ذائقته لقبح في صوتي، فغنى معي «هو صحيح الهوى غلاب، ماعرفش أنا!». رددناها سويا

بصوت يرتفع تدريجيا حتى بَدونا كسِكّيرين حميمين، لولا الصباح.. وحين وصلنا، رفض أخذ أجرته رغم إصراري وتعنتي! قال: «يا أخي هو أنا كل يوم ألتقي مجنون مثلك! الله يسهل عليك»! كان متجها ناحية الجنوب، عضضت على قلبي حتى لا أتذكر صحبي في الجنوب وواصلت الغناء «ما أعرفش أنا»!

رسومٌ من الغيم

أسترخي على الكرسي ثم أقف لأختار كثيب رمل وأجلس. مازال بذاكرتي عطبٌ من الناس وفي خاطري وجعٌ يخِزُ. في قلبي أصواتٌ لا تكفّ عن النّداء، أصوات أغيّرها بصوت البحر مباشرة فتستحيل إلى حيث يجبُ أن تكون.

أضعُ يدي على الرمال خلفي وأطلق نظري ناحية الغيوم الرصاصية البعيدة. أرى خطًّا أبيضا ملتويًا من السحب وداخله كتلة من سواد. وسرعان ما يدور الخط ليصنع عمامة ناصعة، وتتشكل الأجزاء السوداء وتمتزج مع الرصاصية وتجتمع مع بعض ضوءٍ بعيد ليلُوح لي وجه أبي مبتسمًا كما لا يمكنُ أن أنساه. أبتسمُ بدوري حتى لا يبقى مجال ليتمطط فمي أكثر، ويفعل ذات الشيء حتى تضيق عيناه وتتفتح أسارير وجهه. أعودُ بسرعة لا تدركها الصواريخ ولا الطائرات الراسية منذ شهر كأكداس خردة في مزاد؛ أعود طفلاً!

ليس كثيب الرمل سوى تراب، وهذا المحيط ماجلُنَا الكبير. أنظرُ إلى وجهِ أبي وأسند رأسي إلى ركبته وأسألهُ:

- من حفر الماجل يا أبي؟
- أنا حفرته وبنيتُهُ

يقهقهُ بصوتٍ لافتٍ ثم يضيفُ:

- في العام الذي عقب بناء الماجل كادت تموت عمتك مريم
- من مريم؟
- بنت فلان
- صاحبة أمي؟
- أي أي
- كيف؟
- كان ذلك حين كنتُ في السابعة عشرة من عمري، حيث ذهب كل العرش (قبيلة) إلى الشمال للعمل في حقول القمح، لم يبق أحد سوايَ. تركوني لأحرسَ المكان وطال غيابهم أشهرًا. طالت لحيتي وشعر رأسي وأنا وحيد أجوب الأرض وأحيانا أحفر لأزرع هذه الأشجار. وكانت «مريم» متزوجة حديثا وكما تعلم فإن بيتها بعيد عن أرضنا.
- نعم
- اشتد الصيف وجفت المياه فتذكرَت أنّي حفرتُ ماجلا قبل زواجها بقليل، وكانت تعتقد أني ذهبت مع البقية إلى الشمال.
- أيواااه
- كنت في الجوار بهيأتي المخيفة، وكانت تلبس ذهبها الذي لمع من بعيد تريد سحبَ الماء فاعتقدتُ أنها «جنّيّة» وقلتُ هذه فرصتي.
- وبعد

- ركضت خلفها، ولمّا رأتني بتلك الحال اعتقدت أني غول! ركضت خلفها حتى وصلت باب منزلها وأغمي عليها وخرج أهلها يصرخون ويرموني بالحجارة وكنت أصرخ هاربًا أنا فلان.. فلان.. فتوقفوا.
- وسامحوكَ؟
- طبعًا، وضحكنا بعدها كثيرا وشاعت القصة بين الناس إلى اليوم.

الحق أني حين كبرتُ قليلا سألت أمي: «كيف لم يشكوا في نوايا أبي تجاه المرأة؟ وكيف سامحوه؟» لكنها صدّتني قائلة: «يعطك كفرة ما اطول لسانك، هي أختهُ.. بالرضاعة». وصَمتَتْ وصمتُّ.

تطلعُ الشمسُ بشعرها الذهبي فأذكرُ من لا تستحق الذكر وأطرد خيالات بذيئة كثيرة وأرفع رأسي ليصبح وجه أبي سماءً واسعة، تتمزق العمامة وتتبعثر في السحاب البعيد. عبثًا أحاول تشكيل وجهه من جديد. كان بريق الذهبِ القادم من الشمسِ قد بدّد كل شيء. لكني لم أركض خلفَ مريم ولن أفعل مطلقًا، تركتُ لها الماء كلّه، ليس ماء ماجلنا البعيد فقط بل مياه المحيط بأسره وقفلتُ إلى البيتِ ككلّ غول زاهد في البريق.

مديح الصحراء

كل الأماكن في الكون تحمل فلسفاتها وتخبئها بعيدا، إلاها الصحراء. تمتد عارية بفكرة واحدة. فكرة التأمل والهدوء، لها إضاءتها الخاصة ومؤثراتها. ما عليك سوى تسليم نفسك للرمال والنظر من ثقب الذاكرة إلى كل شيء. هذا ما كنت أبحث عنه تماما. الأمان المطلق، وسلطنة عمان آمنة كأرحام الأمهات.

كانت الغربان الأربعة تعيش فوق خزان المياه العالي، الذي يطل على سكن المعلمين من جهة الشمال. غربان سوداء لا تخاف من البشر. تحلق عاليا، وتقتات من فضلات أكلنا وأكل بعض الأهالي هناك. أراقبها دائما، حين يكون الفضاء بلا ساكنين يمكنك أن تستأنس حتى بالغربان. المهم أن لا تترك مكانك للخواء.

جئت هاربا، طريدا. بعد أن كسر المتخونجون أنفي ورأسي وأخذوا جواز سفري وعطلوني عن الأمل. صحيح أني الآن بخير وأن أنفي عاد كما كان ورأسي تخلص من الألم لكن، مازال وجداني محطمًا ورأسي يتلاطمه الغضب. مازال قلبي مصابا بصدمة من حب الوطن. وطن نحبه، نتقاسمه مع من قتلنا ومازال يريد قتلنا في كل محطاته!

لم أكن أعرف في سلطنة عمان شخصا، إلا نصر سامي. علاقتي به قديمة جدا، لم تذبل منذ التقيته. كنت طالبا في البوزار. أقرأ الشعر بحماسة وببريق المتأكد من النجاة. وكان يجالسني لساعات. هادىء كالبحر في الصيف، لا يمل من كلامي. يرميني بنظرات الود كلما أراد توجيهي في مسألة ما. يحب شعري هكذا، باضطراباته واختلالاته. كان يعرف أني أكتب على ايقاع قلبي. نصر، شاعر وصل الصحراء قبلي بسنة. حين علمت بذلك فرحت. الفرح أن يكون هناك شاعر ما تحدثه من دون كلام ويصغي إليك ويفهم!

عندما تتخطى الصداقة حاجز الخمسة عشر عاما، تصبح أعمق من الأخوة. تصبح توأمة روحية متينة. أنا ونصر وآخرون كثر نحمل حياة بديلة عن كل حياة فاسدة. نحمل بذورا للعالم الذي نريده. ننتظر الليالي السوداء لنزرع بذورنا وتنمو. عوالم كاملة قمنا بزرعها داخل الصفحات. إي والله، بعضها يموت وبعضها أينع كضحكات الأطفال. ونشترك في حبنا للأطفال، الأطفال في كل مكان!

لم أغير من عادتي، أصحو باكرا لأمنح فيروز فرصتها اليومية لتزين لي الصباح. «عمارة» يعد قهوتين. واحدة سوداء لي وأخرى ممزوجة بالحليب له. يوقظني بصوته الغليظ، الذي أصبح بعد الألفة أفضل من صوت ام كلثوم بالنسبة لي. لا ينطق اسمي إلا لماما، يقول لي كل صباح «رفيق، رفيق.. عملتلك قهوة الصباح.. فيق نحكوا

شوي». وسرعان ما بات الجميع يناديني بنفس ذلك اللفظ الشريف حتى صرت لا أنتبه لاسمي اذا ناداني أحد. حتى الذين لا يعرفون عن الموضوع شيئا يفعلون ذلك. البعض كان يعتقد أن اسمي «رفيق». حتى الغربان فوق خزان المياه تنعق فأخالها تقول لبعضها «رفيق.. رفيق». فأُفيقُ!

عزلة

منعتُ عن نفسي التجمهر منذ سنوات طوال، أجلس وحدي وأشرب وحدي، وأتحمل منفردًا عواقب كل شيء. وأعلم يقينًا أن الخلاص شأن فردي تماما حتى لا يخون خطونَا أحدٌ. وأيضا لأني مثخن بالخيانات وممتلئ بالأسى والندم.

أخاطب البحر المهيبَ، فيتحركُ سطحه كمن كرع نصف الكأس ونفضه على الطاولة. يمدّ موجاته نحوي فيمنعه الضعف من الوصول إلي. أحبك يا صاحبي لكن أمتارا بيننا تكفي لآمن أذاك؛ هكذا أقول له فلا يعجبه الكلام ويواصل لغوهُ دون طائل.

والحقّ أن الأذى طبع الذين أحببتهم، وأنا طفل أحمق في الحبّ سرعان ما أعطي كل شيء وأعود بطعنة في الظهر وأخرى في خاصرة العناق.

أتكئ على مرفقيّ وأسندهما إلى ذراعي الكرسي وأرفع رأسي في اتجاه السماء. تظهر من خلف بلّور نظارتي صافية فأعلم أنها خدعة ولذا أنزع النظارة فيأتي الضباب. ضبابُ الرؤية والرؤى وضباب العواطف الممزوجة بالخذلان. قال أبي أن الذي يشاهدك في محنتك ويصمت، هو متشفّ في ثياب صديق وأنا أصدق ما يقول أبي. لا محنَ لدي اليوم سوى ما علق بالذاكرة وما لا أستطيع محوه مطلقًا. ومعنى ذلك وأنا خبير بي أني سأزبد مثلك يا صاحبي ولكن يدي

حين أريد، تطولُ. ومعناه أني لم أقرر بعدُ شيئا.

لستُ خائفًا من شيء، لا الوباء ولا سواه. وإن كنتُ لا أريد لروحي أن تبقى غريبة حين فناء الجسد. روحي آنذاك ستعود خفيفة متخففة من ثقل هذا الوعاء. تعرفُ الدرب جيدا إلى أرضنا، تعرف الجبال والسهول وتعرف البخار والصحاري وتعرف كل شيء. لست خائفا أبدا.

حين باعَ أبي فرسنا البيضاء للتجار وبكى. عادت وحيدة من مسافات طويلة وحين نهضنا ذات ربيع وجدناها واقفة في مربطها ففرحنا وقبلناها من جبينها وعانقناها بقوة وحب فصهلت كثيرا. وقتها لم يقل والدي شيئا لأنه كان يعرف أن المدارس على الأبواب وأن تعليمَنا أهم من الفرس! بقيت البيضاء أياما ثم جاء أصحابها وأخذوها حيث لا نعلم أين.. قال الأب لابنهِ وقتها: «الخيل تعرف مواطنها وتعود دائما». فأجاب الولد فرحا: «وهل ستعود مجددا». فأجابه: «إلا إذا ولَدَت في بلاد أخرى تبقى مع صغيرها».

مستكينٌ إلى روحي، أقلّب صفحات العمر الماضي. أضحك من موقف وأرثي لآخر ولا أقترب من البحر أبدا، لكنّه يتمدد مخاتلا شرودي حتى يصل. أنظر إليه بطرف العين وأقول لهُ ساخرا: «مد ذراعك نحو الآخرين، أنا وحدي بلا جمهرة، ومن يمشي وحيدا لا تغرّه المسكنة!». وأغادر.

زبد الذاكرة

أواجه البحر دون ظهير، وحدي تماما. أطوي الرواية المؤلمة جانبًا دون أن أنسى طيّ صفحة التوقف. أنظر إلى عميق اليمّ الواسع والفارغ تماما إلا من إيقاعه الداخلي في قلبي. ألمحُ شيئا داكنًا يقترب، تصفعه الأمواج بقوة لكنه يقاوم ويطفو ثانية وثالثة. أقف من على الكرسي وأمد النظر لأعرف بصعوبة أنها عصا أو قطعة خشبٍ لا غير. تواصل الصراع وأواصل المراقبة، وحين اقتربت ضربها الموج بعنف فاستقامت وهوت مجددا على الزبد الأبيض. حينها رأيت أمي مع نساء أخريات، رأيت يدها السمراء تمسك بالعصا وتضرب الصوف على حاشية «ماجل الدولة». سمعتُ أهازيجهن والزغاريد. «لم يكن هذا الربيع سيئا، سأنسج أغطية الشتاء» و«برنس وقشابية»..

أعود بذاكرتي الحطام إلى زمن المحبة الخالصة، زمن ليس فيه غربة ولا خوف ولا موت ولا رحيل. أركض نحو «القريشة» وأخرج الشاة من قرنيها وأحكم جرّها حتى لا تغلبني وأسمع صوت أبي يشجعني «راك راجل.. تغلبك نعجة!» وتأتيني قهقهات عمومتي وأبناءهم الكبار فأبتهج. أوصل لهم الشاة داخل الغرفة المعدة للجزّ، وأحمل الصوف في كيس وأركض ناحية الوالدة لأضعه أمامها

فتسألني «ما زالوا؟ أقول نعم وأركض حتى لا يسبقني لاخراج الشاة التالية أحد. وأسمع من خلفي كلام النساء عن الشياه «ربي يبارك»..

تقفز النعجات من دون لباس كما كنا نقول، نقودها الى مخدعها ونحكم غلق الباب جيدا ونتوجه الى صهريج المياه لنأخذ حماما في الخلاء. ثم نتحلّق على «كسكسي الغداء». أستمع لأحاديث الكبار قليلا ثم أنام. أنامُ بطمأنينة تامة وسلام عميم. أفيقُ عندما يرفع أبي لحفته عن وجهي ويتعمم بها فأعرف أن وقت القيلولة انتهى.

تقتربُ العصا من الشاطئ وتتباطأ الموجات في صفعها. تلوحُ غيوم كثيفة في رأسي. أشعل سجائر كثيرة، وأنفث حزنا عميما ترتبك منه نوارس البحر فتطير محدثة جلبة في الفضاء. أتصل بالوالدة البعيدة فتقول لي: «لا ترجع هناك مرض قاتل في المطارات» وتضيف «أخوك قال». أطلب منها ملازمة البيت فتطمئنني وأغلق المكالمة. أنظر مجددا الى عصاتها المرمية على الرمل وأجيبها: «ليس هناك شيء قاتل الا غياب أبي وغربتي عنك!».

وحيدان

أمّا وقد ضرب الوباء هذا العالم، وأنا غارق لأكثر من عام في حزنِي على أبي، مُهمِلاً كل شيء بدءًا من روحي. روحي التي انعزلتُ بها بعيدا على ضفة محيط مهملٍ مثلها. بتُّ أشكّ في كل شيء، حتى الجدوى من الحياة.

عاشَ أبي ساخرًا من كل شيء، وطالما لعنَ الحياة ولعنَ حتى والديهِ لأنهما تركاه وحيدا لم يتمّ السادسة. كنتُ آنذاك أستغربُ شتائمه تلك، ولكني الآن أعرف أنها لعنات الحب وشتائم الفقد والشوق.

حدثَني ذات خريفٍ حينَ أكملنا زراعة الأرض وتقابلت وإياه على لهيب النار نعد الشاي وننتظر الجرّار. قال أن جدّي كان غنيّا وربط ألفا من الإبل، ولكنه لم يجنِها بكد جبينه بل ورثها لذلك أهدرها في زيجاتهِ الكثيرة وبعثرها في الكرم في غير أهلهِ. سألتهُ عن جدتي فقال كانت تحبهُ وتخافه لذلك لا تنتقده في شيء. ثمّ ابتسمَ وقال: «حتى حين ماتَ بمرض مجهول انقطعت عن الطعام والتحقت به بعد شهرين». وحين أبديتُ اعجابي بالقصة قطّب جبينهُ وأضاف «تركتني وحيدًا وماتت.. بنت القحبة!». وقتها ضحكتُ، ضحكتُ عوض أن أحضنهُ وأبكي. كنتُ صغيرا ولم أتعود منه قولا

كالذي أتاه! وعوض أن ينهرني ضحك معي وقال «اضحك الحياة كذبة كبيرة لا يدوم فيها فرح ولا بكاء».

وباء «كورونا» يقتل الناس! ولكنّ أبي لم يقتله المرض ولا الأوبئة ولا أي شيء آخر عاش الحرب والاستعمار والجفاف والمجاعات. ماتَ حين تركناه جميعًا وسافرنا بعيدا ولم تبق معه سوى أمي. وأنا لست حزينًا ولا سعيدا؛ أنا فقط خائف على أمي. فكرتُ في حالها لو أصِبتُ؟ وحالها لو أصيبت هي! الغربة هي ألعنُ اللعنات يا أبي، ألعنُ من يُتمِك الدّامي ويُتمي الفتيّ الفتّاك!

مونولوج الشرود

أعرفُ هذا الشعور جيدا، لم يفارقنِي. عقِبَ كل أزمة ينتابُني. أقرأ منذ الصباح ولكني كلما أخذت راحة قصيرة للتدخين أنسى كل شيء. علِمتُ أنه ليس وقت المطالعة. إذن وقتُ ماذا يا فهيم؟ قلت لنفسي. ثم أجبتها «وقت الشرود يا ذكية».

هناكَ شيء يؤلمني داخل روحي، عطبٌ مكين. هناك مساحة كبيرة فارغة داخل مشاعري. ليست المرة الأولى التي أصاب فيها بهذه الحال.

كنتُ، حين أحزن كثيرا، أعود إلى البيت. هناك تعرف أمي أني سأنزوي لساعات أو أيام. أجلسُ وحدي وأنام كثيرا ولا أجادل في شيء. وتعلم أني سأوافق على كل ما ستقوله. وأمي ككل النساء تقوّلني ما لم أقلهُ؛ كأن تجيبني بثقة في النفس: «أنت تقول حاضر، فقط لأتركك وشأنك، كأنك تطردني بهذه الحاضر التي ترددها!» وأحيانا تبكي وتقول لي: «قلي أشبيك آكبدي». لكني لا أعرف ما بي! مرات أقول «هل بقاء الواحد مع نفسه يحتاج سببا». أبي لا يعلق على الموضوع أبدا، أرى في عينيه عطفًا وفي ابتسامته مرهمًا وأرى في إيماءة رأسه وعودا بأن كل شيء سيفوت وينقضي.

نزل ثلج كثيف في ذاك الشتاء، سمعت أبي ينادي بأعلى صوته فخرجتُ إليه. قال لي إن البيت سيسقط على رؤوسنا إن لم أزح الثلج من السطح. فقلت حاضر! وصعدت الى السطح، كنت أرمي الثلج بالرفش في حركة متكررة وروتينية وفي ذات الوقت أمارس ذلك الشرود الأليم. ثار الناس في الأسفل وتعالت صيحاتهم فنظرتُ لأرى الطريق قد أصبح جبلا من الثلج والسيارات متوقفة تماما. ولحسن الحظ مرت جرافة بالصدفة لتزيل كل ذلك والا كنت سأتعذب في ازالة ما صنعت يداي وما صنع الشرود!

طيور الحرب

أقابل البحر بقلبٍ عارٍ كَكُل يومٍ مضى، منذ رأيتُ أبي لآخر مرة يحدق في عينيّ الممطرتينِ ويُسافر. والسّفرُ لعنةٌ عظمى وقسوةٌ وجحيم.

طيور البحر تزدحم على الشاطئ، تنعم بحمام شمس قبل أن تقلع مجددا. دويّ طائرات جاب مخيلتي، فتذكرت المطار. هذا المكان الوحيد الذي يمنحكَ شعورين متنافرين ومتساويين في الفرح وفي الأسى. لا أحب الوداع، لذا أغادر وحدي وأعطي تاريخا خاطئا للسفر حتى لا أجد من تستهويه المفاجآت. أقف أمام اللوح الكبير وأقرأ «المغادرون». وأنظر إلى قلبي وأهمس له: «نحن مع هؤلاء» فينقبض قليلا ثم يعود للطرق على جدار أضلعي بلطف. أدير ظهري للعالم وأسحب نفسا عميقا وأدخل قاعة الانتظار. انتظار الجرافة التي ستقتلعني من جذوري الى المجهول. ألتصق بالكرسي وأسقط أوراقي وأرخي أغصاني وأبدأ في الذبول.

في الجهة المقابلة من كل عام أقف ذات الوقفة أمام لوح آخر مكتوب عليه «المغادرون». في ذلك الوقت تكون أوراقي قد اخضوضرت من جديد وأغصاني امتدت ناحية الطائرة وجذوري تبحث عن جرافة العودة.

تطير النوارس من مكانها، وتتعارك في الجو ثم تنقسم الى مجموعات متباعدة وأبقى وحيدا دون أجنحة. ويبقى البحر وحده يرتّل بموجاته أنشودة رائعة وحشرجة خفيفة تشبه صوت أبي حين يرغب في الصمت فيهمس «أُسّسّسْ..». أصمت رغم أني صامت أصلا، وأنهر قلبي عساه يكف عن الطرق.

أديرُ دفة الشوقِ ناحية السحب وأرفع رأسي في اتجاه عمودي ويتشكل وجه أبي مبتسما وسط الغيوم البعيدة فتمطر عينيَّ بغزارة..

رحلتي الى الربع الخالي

خرجنا من صلالة في اتجاه ثمريت، كانت الجبال خضراء جدا، وكل شيء على أفضل حال. فجأة، تغيرت الرؤية، وامتدت الصحراء صفراء كالموت، ولم يتبق سوى الطريق أسودا أمامنا بضفتين حزينتين.

جال هرج ومرج داخل الحافلة، البعض كان يؤكد أن المشهد سيتبدل والآخرون دخلوا في حالة حزن عميم. بجانبي تجلس فتاة تونسية تبكي وأمامي امرأة من تونس أيضا. حاولت تهدئة الفتاة قليلا، وقلت لها أن الأمور ستتغير حال وصولنا وأن هذا مجرد طريق لا غير، أخبرتها أن لا تنسى كونها كانت في السماء ولم تبك، فضحكت.

توقفنا عند النزل، أنزلنا حقائبنا. ساعدت التونسيات، فيما هرع كل واحد يريد غرفة أفضل من غيره. في الباب مع صعود آخر حقيبة عدت، وجدت زميلات من مصر ساعدتهن أيضا وكنت مطمئنا على غرفتي بوجود تونسي سيشاركني إياها. إذا، فليسرع هو لفعل ذلك..

ثمريت مدينة صغيرة في عمق الصحراء. لم أتأثر ولم أحزن وإنما كانت نفسيتي عادية جدا.. كنت أعرف الخليج، كنت في أسوأ مكان في الخليج. والذي رأى الموت لا تذعره الحمى.

ذهبت مع المرأة والفتاة إلى مطعم يمني، بقيتا مذهولتين من تقسيم المطعم إلى غرف صغيرة للعائلات وفضاء خارجي للفرادى. لكنهما ابتسمتا حين تحاورت مع صاحب المطعم بود كبير، كان سعيدا باستقبال تونسيين، هكذا قال.. تعشينا الأرز مع السمك وعدنا إلى الفندق. جلست خارجا أدخن واشرب نسكافي مرة كحياتي، أحدق في أضواء السيارات المتقاطعة بين ذاهب وعائد من صلالة. كانت مدينة أليفة يعز على المرء مفارقتها.

صباحا جاءت سيارات الوزارة ونقلت الزملاء إلى أماكن عملهم داخل الصحراء الكبيرة وبقيت وحيدا. جلست أمازح سودانيا يعمل في الاستقبال، قال أنه لم ير شخصا عربيا قادما يعرف أناسا من السودان غيري. قلت هي الحياة.

صباحا أرسلت التربية من يقلني إلى وجهتي المجهولة، رافقني سائق الشاحنة. تحدثنا عن الإبل وعن الطقس وعن الجحيم ولم ينته الطريق!

ساعات وظهرت من بعيد أطلال بنايات متناثرة، تعد على أصابع اليد. مغروسة بلون التراب في صفرة مقيتة. أشار إليها وقال: ها قد وصلنا!

ثلاث بنايات لسكن المعلمين ومدرسة ومستوصف، والسلام على من اتبع الهدى!

نشيج

عندما وصلنا السلطنة وعرفنا أننا سنُدرِّسُ في عمق الصحراء، بكى رجال كثرٌ. آخرون وأخريات ألغوا عقودهم وعادوا الى تونس وانقطعت أخبارهم عني. ركبتُ الباص مع من تبقى وغادرنا. كانت وجوههم مكفهرة كمساء في الليالي السود، لا يتكلمون مطلقا وكنتُ أمزحُ وأقهقهُ حتى ثار أحدهم وسألني:

- هل تعرف أين تذهبُ؟
- طبعا الى الصحراء.
- وتعرف ما معنى الصحراء.
- ربما، أخبرني أنت؟
- هناك عقارب وأفاعي وليس هناك حياة، انها الجحيم.

نظرت اليه مطولا وقلتُ: اسمع يا عزيزي، أما العقارب فقد عرفتها قبل أن أنطق، وطاردتها وأخرجتها من جحورها في بيدرنا القديم وكانت وسيلة ترفيه عند اشتداد الحرّ وأنا لا أهوى المقيل. والأفاعي لا يلمسن الا من يدوس عليهن. أما الحياة فلا أعرفها الا من خلال نظرة أمي لي حين حاول هؤلاء قتلي لأجل رأي أبديتهُ لا غير. وأخيرا أريد اخبارك بشيء، وهو أني أمضيتُ طفولتي في ريف قصيّ، في ولاية قصيّة. وفي ريفنا ليس هناك ماء ولا كهرباء.

والمدرسة تبعد كيلومترات. وبعدَ المدرسة أرعى الغنم. وأنا سأذهبُ حتى الى الجحيم لأعلّم أطفالا لم يمسوني بسوء، وأهلهم استأمنوني ووثقوا بي. وهذا لم تفعلهُ معي التي تبكي لأجلها. فصمتَ.

مآزق مبدئية

لأننا كنا غير متديّنيْنِ، كان ذلك كافيا لننعزِل. الحق أنها كانت عزلة اختيارية، أنا أتعامل بجفاء تام مع كل المحيط. أهربُ إلى الصحراء لأجلس وحدي وأحدث الفراغ الذي هو ذكريات في النهاية. أما صاحبي فوجد حاله في مأزق حقيقي. بين أن يكون معي وهذا ما يريده، وبين زملائه الذين تربطه بهم سنوات وعشرة والذين أسميهم من باب السخرية (خوانجية). لم أطلب منه شيئا ولكني، أغادر الجلسة متى كثروا. هم أنفسهم باتوا يعلمون أني لا أحب مواضيعهم. بعضهم أراد الاقتراب وفهم الأسباب، لكن طرق الهروب كثيرة.

حصص التدريس بالنسبة لي هي صلاتي، أحاول استثمار الوقت مع الأطفال. أحدثهم في كل المواد. وكانت الحصة تنتهي بسرعة وكان الغضب يبدو واضحا على وجهي. وكانوا يكافئونني بكلمة دافئة «معلش أستاذ الحصة الجاية نكمل».

كنت على قناعة مفلقة بأن الأطفال هم البديل الحقيقي عن هذا الجيل المائع والمريض. عليهم أن يتعلموا جيدا وأن يتكونوا في كل شيء حتى لا يتشتتوا مثلنا.

قلت لنفسي منذ اليوم الأول، أين ما وجهتك الرياح عليك أن تمطر يا رفيق. والأطفال على بساطتهم يعرفون من يعلمهم بصدق ومن يضيع الوقت في التأخر عن الدخول والخروج قبل دق الجرس. يعرفون ويقدرون بوجدانهم كل شيء..

يقول الزملاء، إن المدير العماني أفضل من «الوافد» لأنه يعامل الجميع على قدم المساواة ولا يخاف من زيارات التفقد الوزاري. وأقول لنفسي، لست تحتاج ذلك طالما أنت على خط مستقيم. أعمل مع أي شخص وبيننا العمل والاحترام. لا شيء آخر ولا أفضلية، سوى أن المدير العماني إذا كان صارما فهو صمام أمان بالنسبة للمعلم. لأن التلاميذ يهابونه، عكس البقية الذين قد يستسهل الأطفال التامل معه فتنفرط المسألة.

في أحد الصباحات، كنت غاضبا وحزينا. كان صاحبي «مصطفى القلعي» يجري عملية جراحية. وكان صوته عبر الهاتف مازال يرن في أذني منذ البارحة. كانت المدرسة على غير عادتها، وعلمت أن «مشرفا» تونسيا جاء ليرتب امتحانا وطنيا لأحد صفوف المدرسة. أخبرني المدير السوداني أن المشرف طلب منه مدرسا «متدينا» ليراقب على الامتحان، لكنه اقترحني قائلا «عندي ثقة فيه». كانت الكلمة ذات وقع، ورغم أن مدرسة مادة الامتحان كان تونسيا. وطلب مني المساعدة لكني رفضت. وراقبت بجدية.

لم يترشح الفصل، وغضب زميلي. وأعتقد أن المدير ذاته كان يريدني أن أساعدهم. لكن هذه المساعدة المزعومة اسمها «غش» وأنا من دولة عانت وتعاني من الغش في كل شيء. لا يمكن يا قلبي أن تناضل ضد الغش هناك وتسمح به هنا.. لا يمكن يا رفيق.

رفيقي كان يفهمني، يستطرد أحيانا بـ«لكن».. ثم يقهقه ويقول «مارس قناعتك».

ابتعادا عن كل ما قد يحرج صاحبي الذي يجب أن يقطع مسافة 700كلم ليرى بناته وزوجته، كنت آخذ عنه حصتين كل خميس. وكان يعوضهما في وسط الأسبوع. يحدثني عن المرأة وعن الأشياء الجميلة التي تنسيه التعب، وأحدثه عن امرأة واحدة حولت وجهة قلبي من واحة إلى صحراء. يستمع إلي، ويتعامل معي عند ذكر الحب كما لو كنت طفلا. ولولا رهافته تلك ماكان ليكون صاحبي.. وها قد رحل أيضا..

الاستقبال

على باب أول بناية من سكن المعلمين توقف السائق. ودعني ثم رحل. كان بحوزتي حقيبة متوسطة وكيس كبير من الخبز اللبناني، أحدهم أوصاني بشرائه لانعدام الخبز في الصحراء. تركت أمتعتي ودخلت السكن، كان كل مدرس في غرفته والخواء يجوب المكان. طرقت أول باب، ففتح لي رجل مبتسم، حياني فحييته. كان مصريا، حمل معي أغراضي ورافقني إلى سكن «التوانسة».

ونحن نقطع مسافة المائة متر نحو البيت تعارفنا، ساعدني اختلاطي بالجنسيات على فهم اللهجات والحديث دون تعثر. هو أحمد زميل عمل وغربة، طيب وبشوش. هكذا يكفي إلى تلك اللحظة.

في بهو البيت وجدت شخصا مهترئا يجلس كمن يتقبل التعازي في حبيب. رد على تحيتي بازدراء، أحسست أن الدم قد صعد إلى رأسي، شيء من حرارة الشمس وأشياء من طول الطريق ومن المجهول ثم هذا البائس المريض. غيرت نبرة صوتي وعدلت وقفتي، وسألته عن غرفتي. قال لي بذات البرود، ليس لديك سرير تنام فيه! اللعنة، هل هذا أسلوب تستقبلون به أبناء البلد الجدد؟ هكذا تساءلت في داخلي ثم قلت له ببرود مماثل ونبرة طالب مشاكل

قديم «سأنام في سريرك أنت!». وفي حين كان يلملم الكلام ليجيبني، زدته شتائما يستحقها على الحساب.. في ذات اللحظة ومع تصاعد أصواتنا ورغبتي في صفعه، تدخل زميلان أحدهما أردني. هدأ من الجدال وقال لي ان بغرفته سرير ويمكنني مشاركته الغرفة. كنت متعبا، أخذت حماما ونمت. نمت وأنا على يقين أن هذا التافه سيلاقي مني ما يكره..

لم تكن السنة قد افتتحت بعد، يلزمنا الانتظار أياما حتى يأتي الطلاب. أفقت ليلا، وخرجت أتفقد المكان فلم أر سوى الظلام وطاولة قرب السور الخارجي يجلس إليها ثلاثة أشخاص. اقتربت منهم وسلمت. أحضر لي علي الأردني كأس شاي. بقيت لساعة أستمع إلى حواراتهم، إلى مزاحهم المليء بالملل المشط. كان ذلك ضريبة تعودهم على بعضهم لسنوات.

من بين الجلوس، شخص غليظ، يبدو جديا أكثر من اللازم. عريض المنكبين، طويل وممتلئ وأسمر. كان يتكلم معي عن تونس وكنت أجيبه بتحفظ عن كل شيء. في الصباح خرجت معه إلى المدرسة وحدثني قليلا عن بناته الصغيرات (سارة وسيرين) اللاتي تركهن مع أمهن في صلالة وأنه يذهب إليهن كل خميس ويعود مساء السبت. كان محبا، وهذا ما جعلني أقترب منه. كان مدرس إنكليزية، وكنت فكرت في أن شخصا قرأ الأدب الانجليزي لا يمكن أن يكون

سطحيا وأن مستوى معين لم يسقط عنه. أضافني إلى حساب الفايسبوك، سهرنا كالعادة ثم ذهب كل منا إلى النوم. في الصباح وجدته يضحك، قلت له صباح الخير «عمارة» فأجابني «صباح الخير يا فوضوي» وأضاف «أحد رفاق باكونين هنا». أصبت بدهشة، دخلنا في حوار حاولت فيه اقناعه بأن تقديراته مخطئة لكنه كان برأس صلب صقلته مكينة حزب العمال.

لم يكن رفيقي هذا ولا أنا نعلم أننا سنواصل الحوار لسنوات ثلاث رغم أننا أصبحنا رفاق سكن وفكر وغربة.

غربان

كنتُ أجلسُ طويلا على السُّور القصير لسكن المعلّمين كل نهاية أسبوع، من جهة الصحراء واليمن الحزين. قبالةَ خزان المياه، أين تعيشُ غربانٌ كثيرة.

كنتُ دائمًا، وكلّما ضاقَ صدري وأصابني الضّجر، أقفز لألتقط حجرًا وأقذفهُ في اتجاهها صائحًا: «أيتها الغربان العفنَة ليسَ لكِ أهداف ولا حاجةَ لكِ للمالِ ولا علاقة لك بالحب ولا بالعذابات، ولديكِ أجنِحة فلماذا تبقينَ هنا؟ أيتُها الغربان العاهرة المثيرة للتقزّز لقد مللتُ قبحك وركاكة تحليقك البائس انصرفي».. لكنها لا تفعل...

ولم تمض أشهر حتى أصبحتُ أفتقدُها كلّما طالت عطلتي وتأخرتُ عن الصحراء! غربان سيئة الصورة والصوت ولكنها لم تؤذني قط. وكانت أنيسة في تلك الفراغات الجوفاء أين منع نعيقها وابل الذكريات الذي كثيرا ما أراد اغتيالي..

إلى البحر

انتقلت من ظفار إلى شمال الباطنة. وحال وصولي واستقراري الأولي زرت المدرسة التي سأزاول فيها عملي. الحق أني كنت متهيبا من شيء واحد، ألا وهو مكان للتدخين، هنا يمنع التدخين بصرامة داخل المؤسسة التربوية وأمامها. إذا، وجدت مكاني داخل مزرعة خاصة بجوار المدرسة. دخلت من أول يوم أثناء الفسحة، حاملا معي كوب القهوة وجلست تحت النخلة أدخن وأفكر في كل شيء وأحيانا في اللاشيء. منظر الخضرة يشعرني بالانتماء، يشعرني بالطمأنينة، وهذه المزرعة الواحة أخضر من قلب أم. هكذا تمر الأيام منذ أشهر عدة. صاحب المزرعة يعلمني بقدومه عن طريق منبه السيارة، ملوحا بيده من بعيد فأرد التحية بتلويحة مماثلة. الفلاحون في كامل الكون لهم نفس الإشارة اليدوية الدالة على الترحيب. أيضا أثار غيابي عن قاعة المدرسين تساؤلات كثيرة، أجبت عنها المدير حين سألني مرة بجملة واحدة «أدخن في مزرعة الجوار». وأصبح يعرف مكاني فيتصل بي هاتفيا إذا احتاجني في شيء، خاصة أني أطيل الجلوس إذا لم تكن لدي حصص. العمال البنغال، يأتون صباحا يفتحون صنبور المياه ويغادرون. وأنا على حالي تحت النخلة. مرة اتصل بي صاحبي «محمد الشحري» قائلا:

«حدد مكانك؟» فقلت: «أدخن تحت النخلة جوار المدرسة». ضحك وقال: «ماهذا الوصف الدقيق». تربطني بالأماكن علاقات وطيدة، بالأمس كنت أشتاق طاولتي في المقهى، ثم صرت أشتاق سور السكن في الصحراء، واليوم ترافقني نخلة.. غدا، غدا أفضل هكذا تقول لي..

المنظور الهندسي

بدأ الطقسُ يتبدّل تدريجيّا، وصار بامكاني اطفاء مكيّف السيّارة صباحا وأنا في طريقي إلى المدرسة. أخرجتُ الأطفال إلى الساحة وجعلتهم يجلسون بعيدين عن بعضهم مسافة متر تقريبًا، وطلبت منهم اسناد ظهورهم إلى الكرسي ومدّ الذراع على طولها ممسكة قلم الرصاص في وضع عمودي مع اغلاق عين وفتح أخرى لقياس ارتفاع عمارة مطلة على سور المدرسة. تراقصت عيونهم الصغيرة فرحًا ممزوجا بالتّعجّب وصاح أحدهم: «ثلاثة صانتي» وقال الثاني «اربعة»... لم يصدّقوا مطلقا أن عمارة بطوابق كثيرة قد تساوي ثلث طول قلم رصاص؛ إنه المنظور!

وقد صار الأولاد يعرفون أن أصواتهم إذا علت وأزعجت الفصول جواري سأقول كلمتي الشهيرة: «صكر فمك يا ولدي انت وياه». وهم باتوا يبتسمونَ وأحيانًا يقولونها لبعضهم إذا مرَرتُ بمجموعة منهم أثناء الفسحة أو بين الحصص. يتهامسون «صكّر فمك، آشبيك!»، أبتسمُ لهم وأمرُّ..

أحاولُ ما استطعت أن لا أتكلّم غير الفصحى، يسكتون تمامًا وأفسّر أنه سحرُ اللغة.

عدتُ بعد الدّوام إلى البيت، في طريقي استمعتُ إلى أغنية عشوائية اختارها الراديو. طبختُ أكلة تونسيّة وقد أصبح لي باع وذراع وذوق وذائقة، بعد أن كنتُ أتململ كلّما قالت الوالدة غداؤنا كذا أو كذا ولو طبخت لبن العصافير! تحدّثت إلى صديقة لقلبي من البلاد البعيدة ثم نمتُ.

والحقّ أن النّوم نعمة كبرى، قاعة سينما دون تذاكر ولا ازدحام ودون رقابة من شرطة الأخلاق. نمتُ طويلا وعريضًا وتمنّيتُ أن أرى أحبابًا عزّ عليّ لقاؤهم حتى في الأحلام..

أشتري وِحدتي

انتقلتُ من سكنِي القديم إلى سكن المعلمين في الخابورة، أنا طلبتُ من ممثل الوزارة ذلك. كانَت شقّة موبوءة بالحزنِ، ومن ثمة لم أعد أريد مشاركة أحد في أيّ شيء يخصّنِي بما في ذلك الحزن ذاته.

قال الموظف أن السكن الذي أريده غير نظيف ومنقوص من أشياء كثيرة، فقلت له أتكفّل بكل شيء لأشتري وحدتِي. كنتُ زرت المكان سابقا، بيت يفتحُ مباشرة على البحر. قلتُ لي لا شيء أجمل من الماء تفتتح بهِ نهارك وانتقلتُ راضيًا.

أجلس إلى المحيط كل مساء، أضعُ كرسيّا مريحًا كنت غنمتهُ من صديق عماني جميل وأشرب قهوتِي على أحاديث الصيادين القريبين هنا وهناك. وفي أحايين قليلة يزورني عيسى ويشاركني صمتي تجاه مشهد البحر المُهيب.

«الخابورة» مدينة مشطورة بطريق سريع يربط مسقط بدبي، وبجانبين يسمّى الأول «الساحل» والثاني «السّيح». وعلى عكس العالم كلّه، فالساحل هنا يضم الناس الفقراء وأغلبهم من الصيادين. وحتى لا أظلم فقراء العالم سنقول بأن الساحل يضم المواطنين الأقل مدخولا مقارنة ببقيّة السكان.

يقول الأصدقاء أن الحكومة اشترت جل البيوت المقابلة للبحر، وذلك لتهيئتها والتصرف في مأزق زحف المحيط على اليابسة، المهم أن الناس باعت بيوتها الساحلية وانتقلت إلى السّيح. ومن حسن حظي أن سكن التربية مازال يقابل البحر الذي لا يمكنني أن أطل عليه من سكن آخر يوما ما، وذلك لأنّي من السّيح الأكثر فقرا في العالم، ولأني لا ألوي تركه هكذا إلى الأبد. من المؤلم وغير العادل مطلقا أن يكون الريفُ وحيدا بلا رفيق.

استأنستُ بالخابورة الهادئة، بالميناء وبالجسر الطويل. أجلسُ لساعات دون ازعاج من أحد، فقط أرد تحايَا العابرين والراكضين على الشاطئ. وقليلا ما يعبر من أمامي أحد تلاميذي الصغار فيسحب والده في اتجاهي محيّيًا فأطفئ سجارتي في الرمل مسرعًا وأردّ السلام.

بعيدًا حيث لا أحد يهمه إن كنت كاتبًا أو مدرسا أو راعي أبقار، حيث يتّصل دماغي مباشرة بخط الأفق. لا أفعل شيئا ذا بال سوى الكتابة.

منذ أيّام تمدد المحيط على طوله وقطع عني طريقي، ولولا طرق خلفية كنت انعزلت عن المدينة، ولكنّي لم أنزعج مطلقًا بل ضحكتُ مع الزملاء الذين يعرفون علاقتِي بالبحر، وردّدوا مبتسمين «اشتاقلك البحر إجا يزورك». بعد سنتين وثالثة في الطريق من العمل

المشترك، وتقاسم النهار معًا تصبح واحدا من الفريق، يعرفونك وتعرفهم. وفي مرّات كثيرة يفتقدونني حين أتأخر ساعة عن الوصول، وهذا وحق الله مُبهج.

أسرّحُ بصري في هذا المدى العريض، أستحضر من أريد وأتغافل عن آخرين وأقرّرُ مواصلة الكتابة لأنها ما سيبقى حين نرحل ويرحلون.

مناطحة

بسبب عزلتي الاختيارية أكتب. الكتابة بالنسبة لي صلاة خالصة، لا يجوز معها أي شيء آخر قد يعكر الذهن أو المزاج. ولأني في أصل داخلي السحيق لست سوى شخص هادئ، أفعل كل شيء دون جلبة. وأكتشف أن الأماكن هي التي تشكل أمزجتنا على نحو أو آخر. فلا أكون ساكنا في بلاد تنفجر فيها الألسن كالقذائف، هذا سيكون ضد المنطق في ذاته. لذلك أنا أتعدد. الآن، أسكن في شقة وحدي. ولأن الحي تجاري ليس لدي جيران عرب. كل الذين ألتقيهم في طريقي أو في المقهى الصغير قبالة العمارة هنود أو بنغال.. هذا في حد ذاته يشكل شيئا إيجابيا إذ بمجرد عودتي من العمل مع العمانيين أكون قد عدت إلى كراتشي أو نيودلهي وبينهما مسافة كيلومترين فقط. أعرف الحلاق والجزار وبائع السمك، يطلقون التحية كل ما التقيتهم وأجلس في المقهى الصغير لساعات صافي الذهن. تتضارب اللغات واللهجات بقربي ولكني لا أهتم. وليكن أنهم يتحدثون عني، غرباء يتكلمون عن غريب! أحيانا يزورني صديق وهذا نادرا ما يحدث، لكنهم يبادرونني بالسؤال: هذا نفر عماني؟ وهم في الحقيقة يخجلون من سؤالي عن جنسيتي فيلبسون المعنى أملا في إجابة. لكني لمكر ما لا أمنحهم الإجابة وأكتفي بالقول yes

ورغم ضعف انقليزيتي إلا أني لا أحدثهم بالعربية التي يفهمونها جيدا وإن كانت بطريقة مقرفة. قبل اسبوعين، زارني عيسى البلوشي. وهو كاتب عماني تعود علاقتي الفايسبوكية به إلى زمن بعيد، لم يكن يعرف أني هنا. زارني في خلوتي، أمضينا ساعات في الكلام. كنت في حاجة لكاتب، بروحه وحسه وانكساراته. خرجنا وتفرجنا طويلا على مناطحة الثيران. كان كل منا جالسا وساكتا بلا كلمة. احترمت صمته وسط الضوضاء والجلبة. لكني فكرت في هذه الثيران التي تتقاتل فقط ليبتهج صاحبها المنتصر! تتقاتل بلا هدف ربما، أو لهدف حيواني لا يفهمه عقلي. أسقطت تلك المناطحة على شخصيات كثيرة هاجمني بعضها بلا سبب وكاد البعض الآخر يرديني قتيلا. فكرت في الثيران البشرية التي تحفر بساقها وصوت خوارها يملأ الكون بمجرد دخولها الحلبة. هذه الثيران التي تعتقد أنها الوحيدة الجديرة بالحياة وأن البقاء لا يحتمل اثنين. وفي ذات اللحظة قررنا المغادرة، ليس إلى البيت وإنما إلى البحر. وقفنا قبالة المحيط الهادىء في ظاهره، كنت أساهم بالتدخين في تعكير صفو السماء وكان يحدثني عن الوطن! شدنا طويلا منظر الأطفال وهم يلعبون، خفنا على طفل يسبح مع والده في عميق اليم.. لكننا لم نقل شيئا! ولكن في قرارة أنفسنا كنا فرحين لهذا اللقاء، سيما وأننا مقتنعين تماما بأن الصفاء الحقيقي لا يوجد خارج الإبداع وأن الغربة

أن لا يكون لك صديق مسكون بالكتابة كهاجس أبدي. عدت إلى عزلتي الاختيارية وكلي مدين للكتابة بأشياء كثيرة أهمها أني لست داخل حلبة المناطحة على الأقل!

على سفر

كنت في البار وقتها، أمرتُ الشاعر في نفسي أن يصمت. كان عليه أن يغلق فمه الثرثار، لقد منحته زمام الأمور كلها. وها هو يفشل ويكبدنا حزنا أبديا، وخسارة في القلب وأخرى في الوجدان.

هنا، قررت الرحيل. بعيدا حيث لا أعرف أحدا. حيث تتغير المناخات والفضاءات والأشخاص. تتغير اللهجة والنبرة والعادات. حيث لا رفاق ولا رفيقات. على كل شيء أن يتغير هكذا قلتُ لي..

بدون مزايدة على روحي، أقنعتها. جلست وإيّاها على طاولة وتحادثنا طويلا عن جدوى البقاء. لماذا فشلنا في الحب؟ لماذا غدرت بنا تلك.. ولماذا باعنَا هؤلاء!

الرفاق تضامنوا بالصمت، وبتقطيب الجبين. كانوا ينظرون من ثقب مخفي إلى قلبي وهو يصْفرُّ مثل ورقة شجر في شهر سبتمبر، وأنا أكابر ما استطعت. أضع نفسي مكان القوة دائما، كانَ البدويُّ في ذاتي قائمًا وكان الشاعر صامتا بلا نبس شفة.

حين خرجت من البار مقرّرًا الرحيل، كان كل شيء يستعد لذلك. شجرة الكالاتوس الخضراء، نكست أغصانها. طريق عودتي إلى البيت ضاق أكثر من مترين. والساعة في منتصف البلد توقفت عن

الدوران. حتى دورية الشرطة مرت من أمامي ولم تطلب هويتي كعادتها..

باب منزلنا الحديدي، لم يفتح من المرة الأولى على غير عادته. حديقة أمي لم ينبجس عنها طيب «الترونجيا» رغم الرطوبة.

خزانتي كانت مرتبة، والغرفة باردة كالموت. وكان الشاعر صامتا كالجدار. على حالتي رتبت حقيبتي. لم أنس تمزيق الصور بكلها حتى بتّ بلا ذكريات، وضعت الهدايا على عتبة الباب فلربما تنفع عابر سبيل. ونمت دون نزع حذائي متأبّطًا وحشتي.. كنت على سفر.

الصخيرات

على سهل فسيح تحت سفح جبل يُطاول السماء في عُلاهَا، أصفرُ اللّون، يُلقِي بظلالهِ على العالمِ غير آبه بما تحته وحتى بما عليه. يَفصلُ بين تونس والجزائر جُغرافيا من الجهة الغربيّة لولاية القصرين. ولدتُ بـ«الصخيرات» ذلك الرّيف المنسيّ إلى اليوم. لم أكن سعيدا البتّة ولا حزينا حتّى. كل ما في الأمر أنّي أمضيت طفولتي في الأحراش أقفُ وجها لوجهٍ مع طبيعة قاسية وظروف تضيق كلما أملتُ في انفراجها القريب. في ريفنا الجاف البعيد تعلّمنا أن لا نتذمّر من شيء وأن نغرز أظافرنا في الصّخر ونتكتّم على الألم. وهذه بداية سيئة قد لا تنذر بميلاد شاعر أو حتى غراب. الصّخيرات هي ريف أشبه بحبل مشنقة ملفوف على الرّقبة، هي موت منتظر مع التسليم بحقّها في أرواحِنا. قد يفهمني جيّدا من عاش طفولة مشابهة في مكان مشابه وأراهم كثرا في عالمنا العربي المسلوب. يتكلم الأهل بصرامة الفلاحين جملٌ قصيرة ودامغة، يحمّلون الكلمة ما لا تطيق من المعنى. ويستعملون الأمثلة وأبيات الشعر البدويّ لوصف الحالة أو للتصريح بموقف ما... ربما من هذا المنطلق نبتت على ضفاف قلبي مخالب جديدة للعبارة...

إذن، عندما ينتهي العالم ويخرج تماما من الجغرافيا، تبدأ الصخيرات. نائمة مطمئنة كأروع ما يكون، بلا صخب ولا ضوضاء

ولا حداثة معطوبة. فلاحونَ في أراضينَا نعيشُ متشابهين تمامًا في كل شيء. وكنت أصحو في الفجر على ثغاء الخرفان وصياح ديكنَا الذي يرفع صوته عنادا في ديكة الجيران البعيدين، أجدُ أبي جالسًا تحت الزيتونة قبالة الشمس يطبخ الشايَ. وكنتُ أظنّ أن أبي هو الذي يأمر الشمس لتطلع كل صباح! قلتُ ذلك لأخواتِي فضحِكنَ وقالت لِي إحداهن سَاخرة بأن أبي يخفي الشمس في جَيبِهِ كلّ غروبٍ ويُطلقُهَا لنَا مع الفجرِ، وصدّقتُهَا.

كبرتُ قليلا وضحكتُ من سذاجتي، وأهملتُ مراقبة والدي وهو ينظرُ إلى الشّمس ويعدُّ لها الشاي. وأخواتِي تزوّجن وحملن معهن الدلال الذي كان يفيض عليّ فتيبّس الوقتُ وقسى. أنا سافرتُ طويلا وعريضا وعليا وواطئا ولم أجد سوى آباء في كل مكان يزرعون الشموس في سماوات أبنائهم ويأمرونها بأن لا تغيب.

منذ ذلك الوقت الذي وضع فيه أبي الشمس في جيبِهِ ونامَ، أظلمتِ البلادُ. وأنَا أكتبُ منذ ذلك الحين إلى حين آخرَ تتعانقُ فيه الدّيكة على إزعاجي، فأصحُو لأجِدَ والدِي قد أطلق الشمسَ في سمائِي مجدَّدًا.

الآباءُ أمثال أبي قُدُّوا من الخرافةِ والصّلابَة والطّيبة والنّياتِ. أبي، واحِدٌ من هؤلاءِ الذينَ مَنحوا للعالمِ معناهُ وحالوا دونَ تغوّل الشّرِّ في الكونِ. فَلاّحٌ وأميٌّ بسيطٌ مؤمنٌ بالعِلمِ سبيلاً للوجودِ. مُحبٌّ ومُعانِدٌ حينَ يقترنُ الأمرُ بحقّ أبنائهِ في الحياة.

أخمّنُ أن طِفلا في بلاد بعيدةٍ، يشتري كتابَ أرض أبِي هديّةً لأبيهِ. أغمضُ عينيَّ وأرى ابتسامةَ الوالدِ بولدهِ، أرى فرحة العيدِ وعبقَ العُطور ودُخانًا للبُخور وألفُ سعادة طالعةٍ من وجوهِ الآباء والأبناء.

جميلةٌ تتفكر عيد ميلاد والدها، تسأل ماذا سأهديهِ هذا المساء، وهاتفٌ يرشدُها الى الكِتابِ. تضعهُ في ورقٍ ملون كقلبِها. تقفُ ليفتحَ الوالِد هديّتهُ. أفكر بالحُضنِ وربّمَا بالدّمع وربّما بكليهما على حدّ السّواء.

غريبٌ صفعته الحِيطانُ يجلسُ قرب نافذة تطلُّ على العدم، يقرأ مُباشرة من كتاب منسوخٍ من قلبي. فيتحول إلى أخ في الوجود.

أما أنا وأبي فسنكونُ كعادتنا، نمشي يدا بيد، تارة يديرني يمينه لأتقي به الريح وتارة الى شماله أين ظلّه يحميني من الشمس. سنكون دائما معا، بين دفّتي كتابٍ على رف مكتبة أو بين يدي من يريد. وهو بينَ يديك أنت الآن. مكانُ الآباء الجميلين هو الكُتب حيث يُعلموننا وهم أحياءٌ وتتخلّد الحِكمةُ.

أبي

علّمنَا الاحترامَ ولم يكن واحد منّا يجرؤ على الإساءة لمن يكبره ولو بأشهر. وأذكر أنه كان يقف قبالة عمي وهما شيخان، بعيدا حيث لا يسمعهما أحد وكانت حركة أياديهما توحي بأن خصومة بينهما تشتد ولا أحد يعرف السبب مطلقا. قالت أمي ربما بسبب الأرض وقالت أختي الكبرى بسبب الأغنام وتكهن الجميع مع مواصلة المراقبة من بعيد. فجأة رأينا يد العم ترتفع وتهوي على وجه أبي. كنّا صغارا، لكننا ثُرنَا. رأيت أمي تضع كفّيها على وجهها وتدخل الغرفة وصاحت البُنيّاتُ. وقفل أبي راجعًا فلم يعترضه سوى أخي الأكبر قائلا له: «لماذا ضربك فلان؟» فرفع والدي يده وصفعه بقوة ونَهَرهُ: «فلان! هذا عمك فلان يا قليل التربية».

انتقلنا الى المدينة وداوم عمي على زيارتنا، يجلس تحت شجرة تين كنت أنا زرعتها. يشرب الشاي مع والدي ويتحدثان بودّ منقطع النظير لكن خاطري كان يؤلمني كلما رأيته. وفي مرّة قال لي أبي «أرأيت عمك ذاك، حين وعيتُ على الدنيا دون أم أو أب، كان أمي وأبي!».

توفّي عمي، ومنَعنَا والدي من الحزن. وتصنع أمامنا الابتسامة والحديث عن الأرض والمطر ولكنه اعتزل شجرة التين، وحدثته

مرة عن أخيه فأشاح بوجهه عني ومضى غير بعيد ثم عاد ليخبرني أن حصى دخلت عينيه.

كان يحبّ أن لا يحزن معه أحد حتى أبناؤه، ولكنه يقاسم الجميع فرحه القليل.

وفي زمنٍ آخر من الذي ولّى، لم أفهم لماذا جمع كل هؤلاء الناس عتادهم وغادروا صامتين. ولم أفهم وقوف أبي على الربوة وحيدا، ولم يعد إلى البيت إلا متأخرا.

كنت فعلتُ ما بوسعي، رعيتُ الأغنام حتى الظهيرة. ومن ثمة آخذ صهريج المياه تجرّه الفرس لمسافة كيلومترات. أُفرغهُ في البئر وأعود ثانية، كان أبي يجلس مع هؤلاء الغرباء يضحك من قلبهِ. وكان الناس يتهافتون على الموقعِ. ولم أكن أسمع سوى كلاما قليلا ينذر بالخير فأفرح.

يأمرني أبي أن أسحب الخروف من الزريبة فأفعل راضيا، وأساعده في سلخه وتقطيعهِ. وكنت آوي إلى فراشي حالِما بالماء الذي سيتدفق من باطن الأرض وأن البلاد كلها ستصبح زياتينا.

أما اخوتِي فكانوا يستغلون ضعفي وقلة حيلتِي ليوكلوا لي مهاما أخرى كانت قد أوكلت إليهم من قبل والدي. أبي يسألني مرارا عن رِجلِي إذا كانت تؤلمني، ولكني أخاف من نظرة عطفه الجارحة فأقول لا. «لا» حافية تماما وجافة كأرضنا.

ذبحنا شياهنَا، لكنهم غادروا، ولا أحد من الناس عادَ الموقعَ مطلقًا. تغيرت الظروف وصرنا كبارا بما يكفي لنفهم أن صخرة حالت دون الوصول إلى الماء. وأن كل ذلك الحزنِ كان بسبب تلك الحجارة.

عدنَا إلى الدراسة، وواظبت مع والدي على ظَفْرِ الحلفاء لنصنع حبلا طويلا ونقيس البئر. لم يكن سوى ذلك الماء الذي سكبته بيدي من الصهريج ولكن أبي يكابر ويحدثني عن المياه التي سوف تخرج، بينما قال لي مرة بصوت خافتٍ «لا أحد يحبّبنا بنيّ حتى الماء».

مضت بيَ الأيام والسنوات وطوّفت، وجبت أرض الله الواسعة وبعينيّ حصى كثير، أشيح بوجهي عمن أحب حين أفركهما. ومازلتُ لا أسيء لكبير مهما أخطأ ومازلت كلّما فكرت في رد شتيمة أذكر الصفعة على وجه أخي فأخاف. ومازلتُ أكوّر الحزن في داخلي وأنفثه بعيدا فتتضارب أمواج المحيط وتهطل أمطار وتندلع في الغابات حرائق!

منذ عام أو أقل قليلا فقدتُ أبي والأرض وإخوتي والعالم، ووقفتُ ذات وقفتهِ على محيطٍ بعيد أكابر. وقلتُ بصوت لم يغادر صدري مطلقًا «لا أحد يحبّنا يا أبي.. حتى الماء»!

بطاقة هوية سابقة

قبل أن تَتخَونجَ البلاد وتفوح منها رائحة الجهل كحريق في مزبلة. تحديدًا، قبل أنْ يُصدّر لنَا الموبوؤن ثقافة السّواد والموت عبر فضائيات لعينة، كنّا بخير. وكانت تونس تعرفُ نفسَها وكنّا نعرفها ونعرفُ ونُعرَّفُ بِهَا أنفسنَا. قبل أن يضربَنَا الجهلاء بقنابل التسطيح الممنهج وكسر الثوابت بالمتغيرات فأصبحت شوارعُنا ممرات للغربان وقد كانت ممشى للحمام.

قبل كل ذلك كانت مدينتي المعزولة تعرفُ الحب وتحترم الحياة. وعلى بساطة كل شيء كان لكل شيء معنى ودلالة.

أهروِل رفقة زميلات دراسة وزملاء، يرافقنَا نسيم الصّباح الربيعي وضحكاتنا المتفرقة ومزاحنا. كنّا نستعد لامتحان الرياضة (باك سبور). وكنّا نتعمد بداية التدريب باكرا جدا أي قبل الموعد بشهر، ربما كانت هواجسنا تخبرنا أننا سوف نفترق نهائيا لذلك كثّفنا من صناعة الذكريات. نركض ميلين أو ثلاثة في الخلاء ثم نمشي ببطء ونحن عائدون إلى بيوتنا. لا أحد آنذاك يتحدث عن منع الاختلاط والكلام البذيء الذي انتشر اليوم. آباء زميلاتنا يعترضوننا مصادفة في الطريق فيلقون التحية ويشدون من أزرنا بالتشجيع ويدعون لنا

بالنجاح ويواصلون طريقهم الى العمل. أغلب الذين أتحدث عنهم تزوجوا من بعضهم وآخرون من خارج المدينة وتستمر الحياة بهيجة غير أن أصوات الدّعاة الأدعياء بلكنتهم الغريبة أثّرت على عَدْوِنَا فتوقفنا نستمع وضاع الطريق وعمّ السواد وأكلت وجوهنا اللحي فلا بقينَا على حالنا ولا أصبح لدينا نفط وغاز!

تدبرت مع أصدقائي لباسا موحدا للرياضة، استعرناه من لاعبي جمعية البلدة، ولم ننم الا متأخرا ونحن سعداء بالغد ومغتبطون به. يوم بكامله للرياضة؛ مئات التلاميذ في ملعب كرة قدم، وغناء ورقص وأساتذة للتقييم مبتسمين لنا طول الوقت. هكذا أمضينا يومنا وقفلنَا عائدين من الملعب البعيد في اتجاه وسط البلد، كنا مئات بملابس الرياضة الزاهية نمشي كأنها مظاهرة أو هي مظاهرة لدعم الجمال والمحبة والشباب. ذلك اليوم من كل عام تعرفه المدينة وليس هناك عائلة لا تملك تلميذا أو تلميذة تُعده لذلك اليوم. قبل أن تصبح رؤوس البنات سوداء مكورة كأكياس البلاستيك، كان الشعر منسدل على الكتفين يحدّث النسمات عن أيامه. شعر أسود أو أصفر أو أحمر لا يهمّ.

توقفنا عند منتصف البلاد وسط الطريق وصنعنَا حلقة دائرية كبيرة وكنّا قد استأجرنا فرقة للفلكلور، وبدأنا حفلتنا. سيارات كثيرة

توقفت ونزل أصحابها يضحكون ويشاركوننا البهجة ولا أحد تذمّر مطلقا.

تناولنا سندويتشات على الرصيف إناثا وذكورا وتحيّلنا على زميلاتنا وسرقنا أكلهن وطاردننا في الطريق مع قهقهات المارة وصراخنا: «أمسكيه.. أمسكيه..» وكنا نعرف أنه مزاح؛ مزاح أطيب من روائح الكراهية التي سادت ولم نفهم من أين جاءتنا.

عدنا إلى بيوتنا متعبين من الفرح، حدثنا أمهاتنا عن تفاصيل اليوم. وابتسمنا لآبائنا وقلنا أننا فعلنا ما بوسعنا والباقي على الله. وكان الله يسمعنا ويستجيب لدعوات الآباء وهم في الطريق الى العمل، كان ذلك قبل أن تشوش أجهزة البث الفضائي على أصوات الأمهات وقبل أن يبعث الشيوخ في قلوب الآباء إيمانا اصطناعيّا عوض ذلك الذي كانوا يعرفون به الله وكان يعرفهم به.

بردُ التذكر

أعود إلى بيتي لا حزينًا ولا سعيدًا، أعددتُ قهوة، وكسرتُ كأسًا طالما بدّد وحشة الطريق ورافقني إلى البحر، ففسد مزاجِي.

أجلسُ إلى المحيط كأني أمام جمهور غفير من البشر الحقيقيين، لا أقرأ له شيئا ولكنه يفعل. موجه متّصل مباشرة بدقات قلبي. أراه هائجا فأستأنس بحزنه وأستمع إلى غضبهِ ممزوجًا بالألحان فأطرب.

غيّرت كوب القهوة المكسور بآخر فبدى غريبا، أقرّبه من فَمي وأعيده إلى الرمال دون أن أرشف منه شيئا. أحيانًا أرمقه بنظرة خاطفة فأحس أنه غير متماه معي والبحر. كوب نشاز وغير أليف بالمرة وعلاوة على سوئه ذلك فهو مزعج، حيث يلمع كلّما مرّت سيارة وعكست الضوء على بلّوره فأصحو من غيبوبتي الصغيرة!

أخيرا أعدته إلى حاوية الفضلات أين يقع مكانه الطبيعي وتناسيت أمر القهوة إلى حين. أما الآن فأراقب المدى البعيد واستمع إلى معزوفة صاخبة لفنان كبير أنا جمهوره الوحيد وهو جمهوري الأوحد. هبّت نسمةٌ باردة فعانقتُ نفسي بكلتا يديّ. وتذكرتُ كيف كان علينا أن نتعانق تحت غطاء واحد. ليس حبا أو فرط أخوة، بل ضرورة يفرضها البرد بقوة الإعصار. كنا نأكل أي

شيء مسرعين ثم نغادر بعد أن نرتدي أكثر من زوج جوارب في حذاء النايلون. والذي يتحول إلى لعنة قصوى إذا تسرب إليه الماء وتبللت الجوارب. نصل المدرسة ونحن بيض كالخرفان. نلتحف الثلج البارد ونتسربل بالارتجاف كالخرق البالية.

أحيانا يتركنا المعلم نركض في بهو المدرسة لعشر دقائق أملا في احماء ذاتي، ولما علم أننا اصلا متعبون عدل عن الفكرة وعوضها بإشعال القمامة في نصف برميل، لنتدفأ قليلا. وحال انتهاء البرد تتحول الآلام إلى مفاصلنا فتبكي البنيات، في حين نكتفي نحن بعض شفاهنا، كاتمين الدمع.

في القسم نجلس لساعتين ونصف ثم تبدأ رحلة الألم من حيث لم تنته. الثلج ضيف سيء الخلق مع الفقراء والأطفال والعصافير. لم نلعب بالثلج ولم نستمتع بوقتنا فقد كان يغطي المرج ويمنع شياهنا عن العشب. وكان يجلدنا بقسوة على اصابعنا التي لم يكن يحس بها سوى المعلم.

منذ ذلك الوقت وأنا أكره البياض ثلجا وشيبا، وحتى حين تخرجت من الجامعة أصبحت معلّمًا في عُمق الصحراء!

الطّيشُ في أكنافِهم

كانت ليلة صيفيّة وكان هذا الحديث قبل عقدين من الزمن، أبي وأمي في «زردة» وأنا أتناول عشائي أمام المطبخ. فجأة دخل أخي الأصغر باكيا بالصوت. قفزت كمن مسّه جنّ ولا إيمان لي بالجن من قبل ومن بعد. اقتربت منه فلاَح لي دم في فمه، سألته من ضربك، لكنه واصل البكاء. خرجت مسرعا لأجد مجموعة من الشبان سألتهم فقالوا فلان. وصلت فلانًا هذا وكان يقف في منتصف الطريق يشتم أخي وأهلي كما اتفق. أذكر أني لم أعد أنا بل شخص آخر، وضربته بشدة.

عدت الى البيت لأجد سنّ شقيقي مكسوراً. فرجت إلى الطريق لأن العقاب لم يرضني آنذاك، وكبرت القصة...

في الصباح جاءت الشرطة، وذهبت معهم وأدليت بشهادتي وقلت الحقيقة كاملة رغم توصيات الأهل بالتزييف.

بعد أشهر قليلة، أحضرت الشرطة حكما يقضي بسجني ستة اشهر نافذة.

هربت الى ريفنا البعيد، وجلست في بيت عمومتي يوما. وفي صباح آخر جاء أبي، بكل معانيه الشاهقة، بابتسامته المنتصرة على الكون. امسكني من كتفيّ وقال: «توة فيبالك ثمة حد يلمس شعرة

منك ونا حي؟". وأبي عندي قرآن لا يكذب، فقلت هازئا من خوفي «لا».

في الغد وقفنا في المحكمة، أنا أمام القاضي وخلفي أبي وسط جمع من أصحابه بينهم سي عدنان الحمزاوي. قال لي القاضي بلهجة صارمة أنه سيسجنني ويحطم مستقبلي وأنه سيفعل ويفعل وكنت مرتاعًا لا أجيب ولا أقول «سامحني سيدي» كما أوصوني. كنت فقط أعرف أن لا أحد سيلمس شعرة مني وأبي على قيد الحياة.

حكم عليّ القاضي بغرامة مالية، وخرجنا ليقول لي والدي وهو ينظر الى أصحابه: «ليس لدينا المال ولكن صنعنا حولنا الرجال لمثل هكذا مواقف». فابتسمت له، واحتضنني، ومضينَا إلى المهرجان

نصبنَا الخيام بين أشجار الصنوبر وملعب الخيل. وكان «الشّياب»، يتناقشون حول حدود كل «عرش» مخافة أن يتناوش الشباب من هنا أو من هناك.

«الزردة» بالنسبة لنَا هي المتنفّس الوحيد طول العام، مهرجان فروسية وسوق لمدة ثلاثة أيام ونحن نترك بيوتنا ونسكن الخيام في سهل تحت جبل أخضر.

آنذاك كنت مراهقًا غرّا، أساعد أهلي ما استطعت وأمنح روحي فسحة من الحرية والحياة.

في الصّباح ودون علم منّي بشيء، تسرّبت وشاية من أحد إخوتي، تخبر أبي أني أدخّنُ. مضى اليوم حتى عصرهِ، عدتُ متعبًا في التجوال في السوق ومشاهدة ألعاب الفروسية فناداني والدي. مشى بي خطوات بعيدة نسبيا ثم سألني: «منذ متى تدخّن؟». أجبتُ دون تردّد: «منذ عام»، وانتظرت صفعة على أقل تقدير، لكنه فتح حافظة نقوده ومنحني بعض الدينارات وقفل رجعًا وبقيت مشدوه الفم.

في الغد، لامت عليه أمي عدم توبيخه لي، لكنه قال بصوته الرخيم: «بعد عام ما عادش فيها توة، أنا ولدي ما يمدّش إيدو ويطلب الدخان من الرجال». وأذكر أني منذ ذلك الحين حتى دخولي سوق العمل، أفيق على ثمن سجائري والقهوة دون انقطاع. وهذا المال يزيد أحيانا ولكنه لا ينقص مطلقا.

وشاني آخرون كثر بعدها، للشرطة وللإدارة وللجامعة وللأحبة وللأعداء ولكني غادرت البلاد ولم أمد يدي أتسوّل شهادة اعتراف من أحد.

الحنين

لي أرض، أقصى غرب البلاد البعيدة، نصيبي من أرض أبي عن أبيه عن جده... لم أشترها من أحد، ولم أغتصبها من أي كان.. هي أرضي بالفطرة والسليقة، وجدتها حين فتحت عيني، هرولت فيها أطارد أي كائن سولت له نفسه القذرة أن يشاركني فيها... حتى اليرابيع والأرانب والعصافير... حفرت خنادق صغيرة، نصبت فخاخ عدة، واستعملت العصي والحجارة في حربي تلك.. لا أقول أني انتصرت لكني كنت أنام ليلا مطمئنا على حدود مملكتي... وحين رحلنا إلى المدينة بكيت طويلا وركضت إلى تلك الهضاب... قالت لي أمي عندها أن علي أن أدرس فالأرض تحتاج لمال كثير وهذا لا تحققه إلا الدراسة... في المدرسة علمونا أن الأرض هي الوطن وهو واسع جدا، فأحببت الوطن. وقررت أن أواصل حربي ضد الثعابين والجرذان. وأن أترك الطيور والأرانب على حالها... هكذا فكرت، حتى فهمت أن الوطن الكبير ليس لي. وإنما ملك لأصحاب المال الكثير.. عندها أصبحت شاعرا أملك كل الأراضي والبساتين... والعصافير التي سامحتها باتت لي.. تزقزق بحرية في أوراقي، وترتع فيها الأرانب دون خوف من الفخاخ... وحدها تلك الهكتارات القليلة بقيت على حالها تنتظر

أموال الشهادات البائدة وتنتظرني.. ووحدي أملك أرضا لا يطمع فيها أحد سوى العصافير والأرانب وبقايا طفل يلملم حبه المنثور حتى يعود.

أرضٌ يقابلها جبل «السراقية» من جهة وينفتح من أمامها الكون على طلق يديه. منذ هجرها أهلها وأضحت قفارا مقفرا، داومت على زيارتها. ككل الأبناء البررة، أذهب لأزور أرضي كما أزور أمي وأبي وأكثر. أجلس على الربوة أو السهل أو أتمشى في مضارب طفولتي. أذكر أصدقائي من أبناء عمومتي الذين تفرقوا عني وتفرقت عنهم، بعضهم جسدا والآخرون فكرا ومواقف، لكنهم يبقون حراس ذاكرتي وأبطال أيامي في زمن البداوة والنيات.. وبعد السفر الطويل وبعد البحار والمحيطات، رأيت رواب خضر وجبال يغطيها الشجر ورأيت الصحارى والانقطاع.. وجلست في أرقى الأماكن وضاجعت أجمل النساء وشربت خمرا كثيرا ورحلت في الأفكار، في كل مرة. أجزم أن لا شيء يضاهي عذوبة ماء الغدير في أرضي البعيدة، لا شيء أجمل من غروب الشمس فوق التلال. ولا شيء أحب على قلبي من ذلك القفر السعيد...

سفرٌ

لم يطالبنا أحد بشيء حينَ رحلنا، ولا يحق لأحد ذلك حين نعودُ. لأننا ولدنا في بلاد تستصغر أبناءها، بلاد تُنَظِّر للخراب وتؤرخ له. بلاد لا يموت شيوخها ولا يكبر أطفالها. تريد البقاء على حالها. تكره التبدل والتغير إلا إلى الأسوأ حالا.. بلاد تشترك صباحاتها مع مساءاتها في القتامة..

ولدنا حيث يحبنا أهلنا ويشتاقون إلينا فقط ساعات الرحيل.. حيث لا أحد يخاف على أحد، ولا شيء يشبه ما نريد ولو من بعيد.. لا الحب كما يعرفه القلب ولا الكلام يزن الفعل ولا النوايا مورقات..

لم يطالبنا أحد بشيء ولا يحق له، لأننا لسنا من تنكر للفيافي وتدثر بالزقاق.. ولسنا من زرع الحجارة في الطريق وقال للأمطار «أنبتيهَا»! نحن من لا سهم له! ولا آثار جرح في ظهور المدبرين!

وقد عرفتُ شتّى أنواع الذُّعر والخوف، حدّ تجمّد الماء في المفاصل وأنا طفل. فمرَّة دستُ على ذيل حيّة وأنا في طريقي لأوصل غداء الحصّادين. ومرَّة فاجأني ذئبٌ، ولولا كلبنَا الذي يأكلُ وجبةً واحدة لكنتُ من الهالكين. وفي مرّات كثيرة اعترضني قطّاع الطُّرُق وأنا مجرد تلميذ في مدن بعيدة أبحثُ عن حضيرة بناء أو ما

شابه. لذلك أنا لا أخاف الموت مطلقًا ولا أخاف أبدًا. فحتى وإن حصل وخفتُ قليلا تذكرتُ ملامح أبي وهو ينهرني «ما تخافش!» فأرعوي!

أنا الذي خلّفني الموتُ وراءهُ عشرات المرات، نجوتُ من حوادث عدة، ومن هراوات حكومة الاخوان السفلة، ونجوتُ من قصص حبّ مميتة ومن ليال الغربة، لكني اليوم بتُّ أخاف.. أخاف أن لا ألقى بلادي ثانيةً!

الحياة صعبة جدا. ليست الحياة التي لا تختلف عن الموت، إنما تلك التي نحب أن نحياها. تلك التي تبدو بعيدة جدا بقياس الأحلام والمقدرة. ولأنها صعبة فهي لا تستهوي من استسهل العيش وأدمن «الكليشيات» الرخيصة والجمل البراقة الخاوية من أي محتوى. كأن يخبرك الموتى بأنهم يحبون الحياة!

أنا أيضا صعب مع نفسي ومع العالم، لذلك بقيت وحدي حتى لا يشاركني انتصاراتي الصغيرة أحد. وحتى لا ألقي باللوم ساعات الهزيمة على أحد!

وفي النهاية ها نحن نركض خلف الغد، ونبدو كحمار الصور المتحركة الذي يعدو خلف جزرة معلقة أمامه، تتدلى من عصا راكبه البغيض. نبقى نطارد الحلم بأكل الجزرة وننسى ثقل الضاحك فوقنا. ليس لنا الذكاء الكافي لنكتشف الخدعة فنتوقف عن الركض، ولا المسافة بيننا وبين الوطن تتقلص!

مذكرات الصّبر

بالأمسِ قرّرت شراء صنّارة وأن أجلس على جسر الميناء وأتعلّم الصّبر. متأكد من أني سأصطاد أسماكًا كثيرة، لأنّي في طفولتي أمسكتُ بالفخاخ كل ما مشى على أربعٍ أو حلّق في السماء.

وجدتُ المحلّ مغلقًا، فاكتفيتُ بالجلوس على رمش الأرض وتأمل بؤبؤ المحيط الدامع بالزبد والموج. أحرقتُ قلبي بسجارتينِ تصاعد دخانهما أبيضًا فتأكدت أنّ الحزن مازال راكِدًا مثل مستنقعات المصانع.

أسندت ظهري إلى الكرسي المريح صاحب الأقدام المعدة للجلوس على الرّمال فلا يميل. تذكّرت رجلي التي كُسرت منذ ربع قرنٍ، وابتسمتُ شماتةً في الوقتِ الرّديء.

عدتُ إلى الخلف بسرعة صاروخ باليستيّ وتذكّرتُ كل شيء. كانَ أحدً، وكنتُ أقشّر برتقالة تحت شجرة التين في بيتنا المستأجر، بداية الثلاثي الثاني من العام. كنتُ في الصف الخامس حينها. آتيًا من الرّيف البعيد، لا يضاهيني في الركض أحد. وكنتُ أحلمُ بأن أصبح لاعب كرة قدم.

أدخلت يدي إلى جيبي أتحسس القطعة النقدية التي أعطانيها أبي البارحة ووجدتُها. فتحت باب البيت وخرجتُ. كان قبالتنا سكة

الحديد لمعمل الإسمنت وكان القطار يشبه أفعى كبيرة جدا، وكنت دون إرادة أقذفهُ بالحجارة حتى يحيد عن أهلي، وحين يمرّ أقتنع أنه قطار وأن الأفاعي تركتها خلفي حتى العطلة القادمة. تجاوزت السكة، ومن بعدها الطريق. اشتريتُ علبة «ياغورت بالشكلاطة» وخرجتُ من المحلّ سعيدا. لم أر ما في الطريق من فرط سعادتي. إلا أنّ شيئا أصابني، عَلوت مسافة غير هيّنة على الأرض وسقطتُ. حاولتُ الهرب من شدة ذعري لكن لا ساق لي لأقف. تكفّل الناس بحملي إلى صندوق السيارة التي صدمتني، وانطلقوا بي نحو المشفى. كنت أراقب دمًا كثيفا ينزّ من ساقي التي أشعر بحرارة عالية فيها لا غير. وصلنَا، فحصني الطبيب وقال عليهِ أن يذهب إلى الولاية لا يمكننا فعل شيء هنا. وبعدها غبتُ عن الوعي تماما.

فتحتُ عينيّ على صوتِ أبي يزمجر كالرعد ممسكا بي في المقعد الأمامي جوار أخي الكبير حتى وصلنَا. كان يقول أنهم رفضوا حملي في سيارة الاسعاف لأن الحالة ليست خطرة.

في مشفى الولاية، ناولوني المسكنات لمدة ثلاثة أيام حتى تعفّن الجرح ثم اقترحوا على أبي أن يبتروا رجلي! هاج والدي الشيخ وماج، لعن الكون والأرض والأطباء ورئيس البلاد وأهله.. أمّا أنَا فلم أفهم سوى أني بخير عميم طالمَا أبي إلى جانِبي.

ليلا، حملتني سيارة اسعاف خاصّة إلى العاصمة. نمتُ طول

الطريق أو أغمي عليّ لا أعرف. المهم أن غرباء بملابس بيضاء حملوني مسرعين إلى غرفة مظلمة، قطعوا ملابسي بالمقصات وقهقهوا حين رفضت كشف عورَتي. حقنوني طويلا وحدثوني بلكنة غريبة على طفل من سفوح الجبال، لكنّي كنت أجيب بما أفهم وكانوا فقط يقومون بتلهيتي حتى يشتغل المخدر.

أفقتُ على صوتِ أمي الباكية، كان على طرف السرير أبي وصاحبهُ الذي قال سوف يزورني دائما، مازحني وقال أنه لن يزوجني ابنته إذا لم أشفى سريعا. مددت يدي الصغيرة إلى أبي فأمسكها بكلتا يديه وقبلني منها

راسمًا على محياها ابتسامة عطف لم أر أختًا لها حتى اليوم وقال لأمي: «ردّاد البِلْ ما هبطش دمعة، راجل!». والحقّ أن والدي كان قبل أن يكلفني بعمل ما في البيدر أو الحصاد أو الحرث، يتعمّد الثناء عليّ فأقوم بجهد مضاعف. كانت رجلي مغروسة في الجبس كلّيّا الا فتحة في الساق عند الجرح القديم، كانوا يعالجون منها الجرح. تفحصت ملامح أبي جيّدا، ولمّا سألني مابكَ قلت: «هل سأمشي ثانيةً، فبكى وبكيتُ». جاء الطبيبُ الشّاب، وضع يده في شعري وقال لي لقد وعدتني البارحة أنك لن تبكي، فقلتُ له دامعًا وأنت وعدتني أن أمشي ثانية. نظر في اتجاه أمي قائلا: «لا باس، أقسم بالله لا باس، شهر والّا ثنين ويرجع كيما كان». مسحتُ دموعي وابتسمتُ لكلّ ما سوف يكون شماتةً في الوقت الرديء!

المَطرُ مُجدّدًا

مطر على سهل ريفنا البعيد، وأنا أطل عليه من ثقب بذاكرتي وأتخيل المشهد الآسر..

أمسح كل السوء من أخبار البلاد، وأنتشي حين يقولون لي نزل المطر.. سيمر كل شيء، وسيأخذ معه أشياء عديدة. من بينها أعمار الناس وأحلامهم وسيستقر الأمر على أعمار آخرين وأحلام جديدة. سيصبح الأطفال شبابا، والشباب كهولا والكهول شيوخا، والشيوخ مجرد أضرحة. أضرحة لا تخبر بشيء، لا أحلامهم تبقى ولا عذاباتهم ولا ضحكاتهم ولا أي شيء. حفرة كبيرة تحوي الشخص وحياته معا. وتستمر الحياة بدونه كأنه كان إشاعة في تدوينة عابرة. إلا أبي فهو حيٌّ في حياتِه ويحيا أيضا بعد الموتِ. أبي متجدد كالمطر..

أعود إلى المطر الذي ينزل على السهل هناك، وحيدا. يروي دون تفرقة كل ما يجد في طريقه. المطر عادل جدا. لا يميز بين الأشجار والطفيليات، يؤمن بواجبه في سقي الجميع. ويؤمن بالحياة..

أفتح نافذة على ما أريد، وأفكر في الحبل الذي نسميه أعمارنا. حبل على غارب يمشي ولا يعود. لكني الآن أغمض عيني وأتأمل

داخل مخيلتي ثم أقرر ربط عقدة في الحبل. هناك بالضبط، حين تصل العقدة إلى الجرَّارة أتذكّر بوضوح تامّ بعضا من طفولتي في أكناف من نهوى من البشر:

أذكر أني تغيّبتُ عن الدِّراسة لمدَّة ثلاثية كاملة. لم يكن همُّ أبي وأمي سوى ساقي التي بدأت أعرج بها جيئة وذهابًا إلى المدرسة وكانت شقيقتي الصغرى التي تدرس في الصف الثالث تحمل حقيبتها وحقيبتي كلّ يوم. وكان نضالها العظيم ذاك يمنحنِي تجاهها عطفًا لا ينتهي. أبي كان سعيدًا لأنه أنقذ ساقي من البتر، ولم يكن يعنيه أن أنجح بعدها أو أرسب. كان فقط يريد رؤيتي أمشي. وفي المدرسة عجزت عن فهم الدروس بسبب تأخري ثلاثة أشهر، ولكن «سيدي فتحي» و«سيدي محرز» وقفَا معي. كانا يشرحان لي دون تكلّف وكنت أفهم بسرعة لأني كنت أريد النجاح. نجحت نجاحًا شكك فيه العالم كله، قال إخوتي إن المعلمين أشفقوا عليّ. وحتى زملائي الصغار قالوا إنني نجحت بإسعاف الإدارة. وقيل كلام كثير لا يسمن ولا يغني من جوع ولكنّه يحفر في العزيمة ويكسّر المجاديف ونحن قوم لنَا في الإحباط مواهب لا تحصى ولا تعدّ. مررتُ إلى مناظرة السيزيام آنذاك، ونجحت أيضا فيما سقط نصف زملائي الصغار. وأمضيتُ الصيف في الحصاد والبيدر وفي المساء أطارد العصافير والأرانب الجالية بالفخاخ. تعلّمت وقتئذ أن لا

ألتفت إلى الخلف مهما يكن من النّاس. سقطتُ بعدها مرات كثيرات ونهضت، نهضت بأسرع من السقوط نفسه وتدرّبت على فعل ذلك حتى بات لي فيها مراس طويل. لم يبقَ من كسر ساقِي سوى آثار جرحٍ غائر متّصل بجراحات دامية في القلب والوجدان تجاوزت بعضها بالكتابة عنها وأعانِي البقية حتى تطيب. عدتُ إلى لعبِ كرة القدم، لكنهم كانوا يتعمدون إصابة رجلي اليمنى. وحين سمع أبي أمرنِي أن لا ألعب ثانية، ثم منعنِي من الرياضة المدرسية لعامين متتاليين. غضبت كثيرا، ولكنّي بعدها أيقنتُ أنه كان يحميني من أصدقائي ومن نفسي الهشة، لم يكن يحتاج رأيي ولا ترضيتي حتى يضمن وقوفي على قدميّ، حين اختص البقيّة في العرقلة! مدينٌ لأبي برجليّ حين أقفُ كل صباح قاصدًا مدرستي أعلّم الأطفال، ومدين لمعلميّ بالحبّ والود الذي أوزعه اليوم على تلاميذي الصغار. أقفُ على مسافة ربع قرنٍ لأكتب سيرتي مع أبي، ليس إجلالا له فقط. بل تحيّة شاهقة جِدًا لكل قطرة عرقٍ من جبين أبٍ، ولكلّ لحظة أمان تخترق دواخل الأطفال فيسكنون. تحيّة للمعلّمين الأوائل أهل الصّبر والجلد والحكمة. كنت ومازلت أتساءل إذا كانت ستتهاطل الأمطار وتزهر الأشجار وتغني الطيور لولا وجود كائنات لطيفة كـ«الآباء».

حراثة في الذاكرة

كنتُ في العاشرة من عمري حينذاك، أو ربما أكثر بقليل. كانت الشمسُ في منتصف السماء لا تنذرُ بالخير ولا بسِواه. جمعتُ شياهي القليلة من بين أغنام عمومتي وأخذت مسلك البيتِ لأسقيها وأقودها إلى «القريشة». مهمة الرعي في العطل المدرسية موكولة لنا نحن الأطفال. نرعى معا، يُصيبُنا الملل فنتعارك ولكنّنَا ننهي نزاعاتنا قبل الظهيرة. هكذا هي القاعدة والقانون؛ إذا تعارك اثنان يعاقبُ الكلّ بتهم مختلفة، من بينها عدم التدخل لفض النزاع والوقوف على الحياد. وفي البيت يعاقب كل واحد منا بتهمة عدم الانحياز للطرف الأقربِ رغم أننا جميعا أبناء عمومة.

أكملتُ عهدتي في الرعي وسقي الأغنام من الماجل الآسنِ ولم أنس أن أحكم غلق المنافذ مخافة أن يتسلل خروف أو شاة إلى الخارج. كنتُ متعبًا، أنتظرُ كلمة الثناء من أبي ونصيبي من الغداء لأنام. لا شيء من ذلك تحقق؛ فقط صوتُ أمي ينادي اخوتي كلّ باسمه مع وابل من الشتائم دون أن تنسى حفظ المقامات بين أعمارهم، فكلّ عمر عندها لديه شتيمة ملائمة. وحين تعبت من الصياح، بدأت تغيّرُ نبرتها نحو التهديد والوعيد بيوم أزرق لا يُعرف له أول من آخر فقط حين يعود أبي.

اقتربتُ منها وسألتها أين أبي؟ فقالت بصوتٍ متضامن انه قد سرى من الفجر يحرث الأرض حتى نجد ما نأكل، في حين لا أحد يرضى أن يلتحق به ليعطيه غداءه والشاي. فرحتُ بالخبر ونسيت التعب وصحتُ «أنا أذهب إليه»..

وضعت أختي الكبرى الغداء في سلة السعف المهترئة، وقفزت فوق ظهر الحمار ممسكا اللجام بيد معانقا بالأخرى بقية الأغراض. سِرتُ يتبعني كلبي الهزيل فاتحا فمه على مصراعيه يتدلى منه لسان طويل، ولكني كلما أراه مبتسِمًا فيضحكني شكلهُ كثيرا. خلّفتُ الزيتون ورائي فلاح لي شبح أبي يمشي خلف الفرس البيضاء. كنت أقترب وكان صوته يتوضّح لي. يتحدث مع الفرس كما يتكلم مع الناس، ببدأ الجملة بأمرها بالدوران لكنه يواصل التحدث معها. سألته مرة إن كانت تفهمه، فلم يُجب.

أوقفت الحمار بجانب شجرة آكاسيا وحيدة وربطته إلى جذعها محاذرا أن لا تقع السلة أو يرفسها الحمار فيصبح اليوم أزرقا كما قالت الوالدة. آنذاك، توقف أبي والتفت بعرقهِ وتعبهِ وشيخوخته التي ظهرت جلية على ملامحه وجسده، ولكني لم أتفطن لذلك لأني عرفته هكذا. مشى نصف المسافة حتى التقينا، أمسكني من كتفيّ الصغيريْن وقال لي «صحّيت يا ولدي الأحمر». لم أكن أحب وصفه لي بالأحمر ولم أفهم قصده مطلقا، مع ذلك شعرتُ بغبطة في القلب

وبادلته الابتسامة وجلست قربهُ أضع يدي على ظهر الكلب متظاهرا باللامبالاة. لكنه سحبني برفق من مرفقي حتى أصبحت قبالته وأومأ لي برأسه أن اشاركه الطعام ففعلتُ لأول مرة في حياتي، فالأطفال في ريفنا يأكلون ما يتبقى من غداء الرجال.

أكمل شرب الشاي وناولني كأسا بعد أن سكب فيه الماء ولم يعد له من طعم سوى بقايا سكر، وقال لي خذ الأغراض وعُد لتَنام. فكرت قليلا ثم سألته أن لا يغضب اذا طلبت منه شيئا، فابتسم. قلت له أريد أن أحرث على الفرس. ضحك بصوت عالٍ وقال «عندما تكبر، ليس الآن». جمّعت أدباشي حزينًا، تثاقلت خطاي في اتجاه الحمار فيما ضل الكلب يأكل ما أبقينا له على ورق جريدة بالية.

جلستُ أفكّ الرباط من الشجرة، وإذا بصوت أبي يناديني تعال. ركضت، قفزت فوق سطور التين الشوكي حديثة الغراسة حتى وصلتُ. وضعنِي بينه وبين المحراث ومشينا نتبع الفرس وكان يتظاهر أحيانا بتركي أميل شمالا أو يمينا ويعود كلّما غلبتني قوة الفرس ليعدّل المحراث ولم يكفّ عن النّصح حتى تركني وحدي أمشي وأجئ ولا يصلني سوى صوته من بعيد ينادي «ما تبوّرهاش، لز الخطوط.. هكاكة باهي..» إلى أن رأيته يُنزل عمامته على عينيه متمدّدا ونام.

مضى الوقتُ وأنا أقلّد أبي في حديثه مع الفرس وأتجنب شتمها، كانت فرسًا محترمة وذات وقار ورفعة في بيتنا ولا يجوز لنا إلا كلام الثناء عنها، ولنا الحق في شتم الحمار مثلا فلا ضير طالما لا يفهم ولا يتحدث اليه أحد. كادت «الطبة» أن يكتمل حرثها كلّيّا وكنتُ أفكر في ثناء أبي عليّ حين يستيقظ، وكنت سأفرح أكثر حين يعود إلى البيت ويجعل يوم إخوتي أزرقًا، كانوا جميعا أكبر مني وكنتُ الأضعف جهدًا وحيلة، وكانت كل شتيمة توجه لأحدهم بمثابة ترضية لخاطري مما تسببوا لي فيه من أذى.

مشت الفرس وقد تعبت، تتصبّبُ بالعرق من كل جسمها، وتعثرت خلفها مرارا ولم يعد لي ما أقاوم به المسافة. وعلى مقربة منها قفز شيء غامض لم أتثبت ما هو، لكنها ركضت هاربة في الاتجاه المعاكس. سقطت وجرّتني من يدي التي أدرت فيها طرف حبل المِرَدّ وأفلته عامدا. وقفت وركضت خلفها محاولا ايقافها لأن المحراث يضربها من الخلف على قوائمها لكنها لم تتوقف إلا بعيدا. أوقفت أذنيها ورفعت رأسها وقد بدت مذعورة من شيء ما. أما أنا فوصلت اليها أحاول اقناعها أن تهدأ وقد اختلط التراب في وجهي بالدموع. دموع الخوف على الفرس من أذى المحراث ودموع مهابة أبي الذي سيعتبرني فاشلا ولا أصلح لشيء. في ذات الحين، تصاعد نباح كلبنا من الجهة الأخرى وتبعته كلاب كثيرة تنبح في ذات

الاتجاه. كنت افك حبال المحراث عن الفرس حتى وصل أبي وقال: «ما تخافش، ما تخافش.. فجعها ذيب وهرب». في تلك اللحظة وأبي يأمرني أن لا أخاف، وأنا أصلا خائف منه دون سواه، بكيتُ بأعلى صوتي. حضنني قليلا بقوة ثم مسح وجهي بطرف ثوبه فارتحتُ. وسرعانَ ما عاد يمسك الحمار من لجامه، وقال لي خذ الفرس إلى البيت. مشينَا معا، لكني من يقود الفرس وهو يركب الحمار.

كان الضجيج في كل مكان، النّاس تصيح محرضة الكلاب الهزيلة لتستميت في مطاردة الذئب. وأبناء عمومتي يصرخون «هيا نطارد الذئب». كانت كلّ تلك الجلبة وبعض الأعيرة الناريّة والنباح العنيف في وادٍ، وكانت يدي في لجام الفرس الجلدي ونظرات أبي المطمئنة لي تشقّها بعض شهقاتي مما خلّفه الذعر في وادٍ آخر تمامًا..

صيامٌ

ما زلت أذكر العشرية الأولى من حياتي في ريفنا قبل أن ننتقل إلى المدينة المحاذية. أذكر رمضان بتفاصيل دقيقة ومغايرة عما هو عليه الآن، كان أبي هو الوحيد الذي يملك جهاز تلفزيون صغير بالأبيض والأسود نشغله ببطارية سيارة. وكان رجال المنطقة يتجمهرون أمامه بساحة البيت منتظرين مفتي الجمهورية آنذاك.

ولم يكن رمضان يعني شيئا سوى أنه شهر وسيمر كبقية الشهور. لم أسمع تذمرا من أحد، كل شخص يقوم بدوره على أكمل وجه. ولأن دوري كان رعي قطيع الأغنام مع أبناء عمومتي متباعدين عن بعضنا ومحاذرين عدم اختلاط القطعان فإننا نسرق بعض الوقت لنلعب أو نتشاجر شجارا خفيفا لفرض سيطرة وهمية. أعود قبل المغرب بقليل لأسقي الغنمات وأقودها إلى «القريشة» ثم أشارك في أي عمل بسيط. كأن أشعل كانون الحطب لشاي أبي بعد الإفطار أو أحضر الأغراض التي تطلبها أمي أو أخواتي.. وكنت أعمل على البقاء بعيدا عن إخوتي الأكبر مني لأن لا تمتد يد أحدهم إلي، وقد كانوا مراهقين ويقلدون الكبار في غضبهم (مرمضنين). ولم يكن لهم حيز لتفريغ غضبهم سواي، وكلما ضربني واحد منهم لأي سبب أتفنن في توريطه مع أبي أو من هو أكبر منه من إخوتي عبر كل السبل

صدقا وكذبا. وكنا حال ما ننتهي نصعد فوق الأسطح لنراقب ضوء المدينة البعيد فحين يظهر النور نعلم الصائمين بموعد الإفطار. ثم نقفز كالمجانين ضاحكين لنشعل كومة حلفاء أو تبن مربوطة بسلك معدني ونلوح بالنار عاليا حتى يرانا من هم تحت الهضبة ويعلموا أنه المغرب. ويفعل أطفال آخرون نفس فعلنا فتظهر النار صاعدة نازلة في بيوت كثيرة في مشهد بانورامي ساحر.. وكنت أجلس قليلا أمام التلفاز، حتى إذا بدأ الناس بالوفود إلينا غادرت. فقد كان من غير اللائق مجالسة الكبار. ففي الليالي المقمرة أذهب إلى مندرة القمح المنبسطة لألعب ولكن في الظلام أكتفي بفراشي والتخطيط للإطاحة بمن أزعجني في ذلك اليوم فإما واحد من ابناء العم أو واحد من اخوتي. قبل السحور بقليل تخرج الناس عن بكرة أبيها لقلع الحلفاء من الجبل، منظمين تلقائيا حيث يمشي الرجال في المقدمة خوفا من أي خطر محتمل (ذئب، ضبع، خنزير بري) وتمشي النساء على بعد خطوات منهم. ويستمر العمل في أعالي الجبال إلى الظهيرة أو بعدها بقليل، عمل متعب ومرعب ومخيف حيث يتواطأ الجبل مع حجارته ليسقطوا هذا أو تلك ويضرب البرد في المفاصل دون رحمة وتحز الحلفاء أكف الناس. من ثمة تربط كل عائلة شباكها على الدابة وينقسم الربع إلى نصفين. تعود النساء إلى البيوت البعيدة ويتجه الرجال إلى منشر بيع الحلفاء لتقدير وزن المنتوج والعودة بعد

ذلك.. وحين كبرت علمت بأن ذلك التعب لم يكن يقدر سوى بملاليم لا تكفي سائلا ولكنها كفتنا الحاجة وحفظت ماء وجهنا ودرستنا في الجامعات ووزعتنا على العالم مدرسين ودكاترة وبقي الريف البعيد وحيدا بلا أهل ولا عشيرة يمضغ رمضان تلو الأخر ولا أحد أشعل النار على تلاله لذلك هو لم يصُم عن الحُلم بعودتنا إليهِ.

غربة

بيتنا في الريف البعيد، مبني على العرض كالمدرسة. وكانت أمامهُ أشجارُ كثيرة، أحاطها أبي بسياج من الحجارة والطوب حتى لا تأكلها الأغنام. هناك ولدتُ وركضتُ في البراري الشاسعة أين لا اشارات للمرور ولا سيارات ولا بوليس. فقط نحنُ وحيواناتنا الأليفة نملكُ كل تلك الأرض. منذ مدة زرتُ المكان وبكيتُ.. الأشجار اندثرت والبيت تهاوى وتساقط ولم تبق سوى شجرة زيتون أمامهُ تقاومُ. منذ تلكَ اللحظة وأنا مسكونٌ بالعودة الى أرضنا وألغيتُ كل المُدنِ من قواميس أفكاري. هناك فقط أشعرُ أني حرٌّ دونَ تأكيد من أحد. وهناكَ فقط أشعرُ بالانتماء إلى أشياء تشبهني كأشجار أبي وأتربتهِ ومعوله وفأسه ومسحاتهِ.. هناكَ لي موعدٌ مهمٌّ معي وعليّ العملُ حتى نلتقي.

سببٌ للرحيل

كان اللّيلُ قد حطّ جناحهُ على ريفِنا البعيدِ. وكنتُ قد آويتُ إلى فراشي بعد مراجعة الدروس على ضوء قنديل يدوي. وفجأة نبحت الكلاب بشدة، وصهلت الفرس واختلط صوت الريح بصوت مضخم الصوت: «سلم نفسك أحسنلك.. أين ستهرب..». كانَ ذلك كفيل بأن يوقف نبضات قلوبنا الصغيرة ونحن لا نعرف ما تعني تلك الأصوات..

خرج أبي وأبناء عمومتي الشباب وبقينا نحن في البيوت بلا فهم ولا دليل. ساعة وعاد الجميع وكأن شيئا لم يكن. وفي الصباح سمعت أمي تقول بأن «فلان» اختبأ طول الليل في مطمور القمح (حفرة لتخزين القمح) وأن أبي وجه الحرس الى جهة أخرى عملا بالقول الشائع (الله يمنّع الهارب)..

في الصباح جاءت قريبتنا العجوز إلى البيت تبكي وحدثت أمي قائلة: «ولدي المسكين كان يرعى الأغنام وجاءه هؤلاء وطلبوا منه أن يدلهم على حدود البلاد مقابل مال قليل فوافق، لم يكن يعرف أنهم خوانجية وها قد جاء الحرس وأخذوا والده حتى يسلم نفسه، ماذا أفعل؟». وماهي إلا دقائق حتى جاءت سيارة سوداء وأخذوا قريبتنا العجوز وسمعناها تتكلم في مضخم الصوت ذاته «وليدي

سلم نفسك والدك مريض لا يقوى على السجن». وخرج «فلان» من بعيد، من خلف تلال رافعا يديه الى الأعلى، وصاحت الوالدة: «ان شاء الله ما يقتلوشو مسكين»، ورأينا كل سكان الريف من الرجال واقفين حتى ركب معهم وعادت قريبتنا تقول: «الحبس ولا الموت، تو يخرج».

نال صاحبنا سنة من السجن بتهمة «مساعدة جماعة ارهابية» وسنة أخرى يوقع فيها لدى الحرس كل صباح. كنّا نعرفه ونعرف أنه لا ينتمي لأي من هذا الهراء، كان راعي أغنام لا يفهم شيئا غير ما يتعلق بالشياه.

مضى العمرُ، ودخلت الجامعة وصرختُ ورميت حجارة كثيرة ودخلت ايقافات كثيرة وتخرّجت وعشت وجُعت ومتّ وكتبتُ حتى اندلعت الثورة وحدث ما حدث. بعدها مباشرة سُنّ قانون العفو التشريعي العام، فنال الراعي وظيفة في وزارة وأصبح مناضلا خوانجيا لا يُشقّ له غبار! آنذاك بالضبط وبالتحديد ضحكت، ضحكتُ حتى سال دمع كثير من عينيّ وجمعت حقيبتي ورحلتُ!

عربدة على التاريخ

أواخر الثمانينات تخونج مخاليق كثر، بعضهم أخذ مالاً والبعض أخذته العاطفة وكلام الشيخ. وأهلي كما الناس تخونجوا وتكاثروا، لكن أبي نأى بنا عنهم. والحق أنه كان يكره أفكارهم تلك، فرغم أمّيتهِ كان بورقيبيّا ولا خيار له آنذاك. ولو أن اليسار وصل إلى الأرياف لكان يساريّا.

وكان لجيراننا كلبٌ قبيح الخلقة، يأتي آخر النهار ليأكل عشاء كلابِنا. وكانت الكلاب تنبحهُ بقوة حين يقترب أحدنا وتتركه يأكل عشاءها إذا خلا له الجو. وكَان أبي ينهره في كل مرة «أخرج يا خوانجي»، لكنه بلا أخلاق ولا شرف ولا يخرج أبدا!

منذ أيامٍ وبعد مرور ثلاثين عامًا، طلعت لي قريبة من أبناء جيراننا أهل الكلبِ وقالت لي «نحن نكرهك ونكره ما تكتب لأنك تكرهنا».

تذكرتُ ذلك الكلب الحزين، كانوا آنذاك قد رحلوا عنه وبقي مرميّا حين شاخ وهرِم، وداومت على اعطائه عشاءه كل ليلة بأمر من أبي وتوصية من الوالدة حتى مات فردمناهُ في مكانه.

حدّثنِي الوقتُ الكئيبُ عن أبي الذي درّسني ودرّس اخوتي واختي وصاروا جميعا دكاترة كبارا يتوزعون على العالم بشرقه

وغربه. وعن تلك التي أخذت وظيفة لا تستحقها في بلادي، وعن الذين بقوا صامتين إزاء ما يحدث ولكنهم ينبحون على فايسبوك. تذكّرت جحافل الذين سيبقونَ في أماكنهم حتى يموتوا حين يغادر أسيادهم. تذكرتُ كل شيء، تذكرتُ بطالتي في الوطن فابتسمت وقلت: «إلى أن يصل اليسار إلى الأرياف سأتحمل نباحكم وسأمنحكم عشاءكم كل ليلة، لا بأس، وسأردمكم في مكانكم حين تموتون.

أما المنطقة التي عشت فيها، فهي متصحّرة فكريًّا وموغلة في التّخلف، لا يمين فيها ولا يسار ولا وسط. كلّ العقول متساوية ومتوازية تماما كعُلبِ السّردين. لا أحد يحترم الاختلاف ولا أحد خارج السرب أبدًا. كل الشباب يفكر بطريقة واحدة؛ إما السفر الى ايطاليا أو العمل في التهريب. وحتى الأقلية المؤمنة بالعلم والتي واصلت تعليمها لا تختلف عن هؤلاء كثيرا، فجلهم يشترون بضاعة مهربة ويفكرون في الهجرة إلى كندا.

أعرفُ أدعياء السياسة هناك، وأعرف سماسرة الثقافة من هواة دعم الوزارة والكلام الكبير المحشو بالسفالة والخسة. وحتى لا أكون مجحفًا وظالما في حق أفراد بعينهم من أهلي وهم إمّا يلازمون بيوتهم أين يقرأون ويكتبون ويجتمعون أحيانا مع من يفهمهُم، أو أنّهم مُهاجرون إلى الحواضر الداخلية أو الخارجيّة.

وهذا الشعب العظيم الذي لا يفكر خارج فكر المجموعة ولا يقول غير ما يقولون، لا يحبّ الناجحين ولا المثقفين ولا يحترم شيئا غير سلطة المال. وحين جاءت الانتخابات قرّرَ النّاس أن لا ينتخبوا مثقّفا واحدا للبرلمان وإنما انتخبوا خمسة مهرّبين دفعة واحدة! هؤلاء يقدمون أنفسهم على أنهم رجال أعمال ولهم مصانع ومشاريع ولكنها كلها في العاصمة وليس لديهم في البلادِ سوى عُمّال بسطاء على الحدود يشتغلون في تمرير البضائع جيئة وذهابًا وينشطون التجارة الموازية ويتحدثون عن بلاد بلا تنمية!

شعبٌ يعمل ضد مصالحِه الشخصية، يقوم بشيء مخالف ويطالب بعكسه تماما. هؤلاء الذين هرّبوا كل شيء واشتغلوا في كل شيء، يجلسون كل مساء ليتكلموا عن الدولة التي لا تطبق القانون وأحيانا يعيدون كل السيئات على الأرض الى سبب وحيد هو الابتعاد عن الله وشرعه.

أنا أيضا سافرتُ، وسأعود اذا ضل في العمر بقية، وسأشتري بضائع مهربة وسألزم بيتي وأشجاري وابتعد عن التجمعات البشرية المعدية حتى أموت بسلام فتدفنني عائلتي في أرضي البعيدة حتى لا أجتمع مع أموات آخرين وحتى أتحلل داخل التربة وأصبح سمادا للأشجار التي يحبها قلبي.

مَعابر

عدتُ من أبو ظبي تاركًا خلفي أطنانًا من البهجة والحبّ. كانت الطريق طويلة ولم يكن معي سوى «نجاة الصغيرة» تبكي وتلطمُ وتترجّاني أن أنزع معطف السفر! وعندما أطالت النواح المرّ خفتُ، فغيّرتُها بأم كلثوم ثم وديع الصافي.. كان الطقس حارًّا وهاتفي تعطل، وخيارات اليوتوب انعدمت فعوّلت على نفسي.. أحبُّ أن أغنّي لروحي، أقلب المقامات وأغير لحن الأغنية وفق مزاجي دون أن يتأذى أحد من قبح هذا الصوت.. أنا وحدي وجمهوري الصحراء!

دخلتُ بوابة البريمي متعبًا، فتش الشرطي سيارتي وسألني عن الكتب فقلتُ كتبي. ابتسم وطلب مني المواصلة وعلى وجهه ابتسامة أحببتها. توقفتُ بعد أمتار وعدت إليه لأهديهُ نسخة. أحسستُ بفرحهِ من خلال شكره وامتنانه. ولما هممتُ بالمغادرة، طلب مني الانتظار، ففعلتُ. دخل واتصل بالمكتبِ في الجهة المقابلة وطلب منهم تسريع اجراءاتي والحق أنهم فعلوا..

واصلتُ المسير في اتجاه بيتي عبر الجبال الرخامية، فتذكرت جبالنَا فعدتُ إلى الغناء «يا جبل البعيد، خلفك حبايبنَا بتطل مثل العيد وهمك متعبنَا».. تجاوزتُ الجبال ونمتُ قرير العين والقلب لألتقي طلابي وزملائي الذين جعلوا يومي عيدًا بالتهاني الصادقة..

وغدا ألتقي الأحباب البقيّة لنحتفل بالسيدة كارلا كما يجب أن يكون الحفل. في آخر الأمر ليس هناك أوطان غير قلوب الذين يحبّونَنَا وها إني أحيا هناك..

رحلة إلى عمّان

قبل الفجر بقليل، وصلت معبر «الحديثة» قادما من الرياض. في رحلة دامت زهاء العشرين ساعة تخللتها استراحات قصيرة في عدة مدن ومحافظات، كانت العاصفة الشهيرة «هدى» تضرب الأردن وجنوب المملكة، وكنت متدثرا بمعطف جلدي أنزعه فقط في الحافلة وغرف التكييف. سلمت الشرطي جواز سفري فختم لي دون أسئلة، أبلغوني أن الخروج سهل لكن الدخول يمر باجراءات كثيرة. في الحافلة عدد كبير من السوريين الذين يعملون في المملكة، ويزورون أهاليهم دوريا في الأردن (لاجئون). تحدثت في الحافلة مع عدد كبير منهم، كانوا يحملون عدة روايات تتضارب في أغلب الأحيان. وكنت أصغي فقط دون تعليق فالوضع النفسي لا يسمح بمناقشتهم في همومهم.

على الجانب الأردني، سأل الشرطي امرأة تقف أمامي في الصف الطويل:

- وين جوزك يا حرمة؟
- متوفي يا أخي.
- لازم حدا يكفلك، ما بتقدري تمري.
- جوزي ميت يا زلمة، أجيبو من تحت التراب.. الله اكبر

تهتز القاعة بالقهقهات من إجابة المرأة، والتي كلفتها الجلوس وانتظار الملازم. تقدمت، سألني الشرطي عن عملي، وعن سبب قدومي الى الأردن فقلت أني أريد زيارة صديقي المريض. تعجب، ثم قال لي عليك انتظار الملازم، فكرت في تلك المرأة كيف أجابت ولم تخف. فتشجعت وقلت له:

- إذا كان غير مرحب بنا يمكننا العودة من حيث أتينا!
- إيش الكلام هاد يا استاذ، احنا أهل.
- أهل وننتظر كأننا لاجئون؟

هاج الناس، خاطبني الجميع بعتب عن كلمة (لاجئين)، يبدو أنها جارحة بالنسبة لهم، لكني تداركت الأمر وأضفت:

«لم أقصد الإساءة، حتى أنتم لستم بحاجة لكلمة لجوء طالما هو القائل أننا أهل. والجمع لا يستثني أحدا».

جاء الملازم، سحبني على انفراد، كان شابا مبتسما. سألني عن عملية حمام الشط، وعن أبو جهاد. فقلت له أن يتثبت في تاريخ ميلادي، لم أتجاوز الخامسة حين حدث ذلك.. قال لي:

- أنت تعرف السالفة؟

نعم نحن ندرسها في الباكالوريا محورا في التاريخ.

ضحك وقال لي «الله محيي اصلكم». ثم أمر الشرطي أن يلصق تأشيرة الدخول في جواز سفري.

تسلمت أوراقي ودفعت رسوم التأشيرة وغادرت في اتجاه الحافلة. دخنت أكثر من سيجارة، ولكن يبدو أن المسائل عالقة في الداخل. فكرت في القاء نظرة، وبمجرد دخولي القاعة التقيت ذلك الملازم البشوش. هو أردني فلسطيني أخبرني بذلك بعد أن دعاني على قهوة. قال أن مناوبته انتهت وأن فريقا آخر سيستلم المعبر. ساعة أو ما شابه ونحن نتحدث عن العروبة والحروب والشعوب، كنت متيقنا أنه ربما يريد جرجرتي بالكلام، مع ذلك استرسلت معه وحدثته عن كل شيء.. في النهاية قلت له:

- هل لي بطلب عندك
- طبعا، اعطيك رقمي في عمان؟
- لا يا زلمة، طلب بسيط.
- تفضل
- ساعد تلك الأرملة السورية، انها مسكينة ولا أهل لها.
- الموضوع معقد يا استاذ..
- بسيطة، أنا أدفع عنها الرسوم وانت تكفلها.. فقط وستكون في عمان صباحا. وتذكر أن والدتك كانت في تونس ووجدت من ساعدها ربما وها انت!
- يصير خير.

لم يبق سوى كرسي المرأة شاغرا، وكان السائق يطلق المنبه لينذر بالرحيل.. البعض طالبه بالمغادرة، متعللين بأنها لن تحصل على إذن

الدخول. عندها قفزت كمن مسه جني، اقتربت من السائق وقلت له أن ينتظرها لأنها ستأتي. رفض في البداية فاخبرته أني مقيم في الرياض، وأني سأنزل اذا لم ينتظر. وسأقدم شكوى للشركة التي يعمل بها. غضب في البداية وطلب مني النزول غير أن المرأة جاءت وأمطرته بعبارات الشكر لأنه «زلمة» وبن حلال وغيره كان سيذهب ويتركها.. عدت عندها إلى مقعدي ونمت. لم أصح إلا على يد السائق فوق كتفي توقضني وهو يقول لي «وصلنا عمان يا استاذ صباح الخير، سامحنا يا أخي ما كان قصدنا نزعلك»!

المفرق*

صباحا خرجت من العاصمة عمان، في اتجاه مدينة المفرق. استوقفتنا الشرطة وطلبت وثائق الهوية. وبعد دقائق أعادوا وثائق الجميع عداي، وطلبوا مني الذهاب معهم، ففعلت.

استجوبني شاب، أسئلة عادية أغلبها موجود على الباسبور، لكن الشرطة في هذا العالم الموبوء تستعمل نفس طريقة الاستفزاز. يريدونك أن تفقد اعصابك وتعلمهم بأنهم أغبياء وتلاميذ فشلة، وأن ثلاثة أرباعهم لا يتقن الكتابة والقراءة! يريدون ذلك ليثبتوا أنك معتد ويجوز بذلك سجنك..

أجبته عن تساؤلاته وصولا إلى قوله:

- ما الذي تفعله في المفرق؟
- أريد زيارة مخيم الزعتري
- ليش شو في عندك هناك؟
- صديق، قالو لي انو موجود في المخيم، انقطعت اخباره وما عندي رقمه ولا أي علامة دالة وقاطعة..

* محافظة أردنية.

- شوف يا زلمه، ما بدّنا مشاكل، ممنوع تفوت عالمخيم إلا بترخيص.. روح عمي الله يسهل عليك.
- ومنين الترخيص؟
- ما رح يعطوك يا زلمه افهام بقى افهام! والا اقلك شوفلك اردني يكفلك تفوت الصبح وتطلع المسا..
- جميل جميل.. شكرا هذه فكرة جيدة
- ظاهر عندك شي بنت انت.. عشقان ولى!
- قتلك صديقي مفقود.. ليش اكذب عليك..
- ان شاء الله تلقاه.. سلام عليكم

هكذا عدت أدراجي، إلى العاصمة مرة أخرى (75 كلم). نمت جيدا. واتصلت بأكثر من صديق تعللوا بضيق الوقت وبخرافات لا يصدقها طفل. لكني عذرت تخوفهم وهروبهم من المشاكل.

في المساء، كنت جالسا في مقهى في شارع الثقافة (شارع راق). أدخن وأبحث عن طريقة لدخول المخيم. لماذا كنت أريد زيارة مخيم للاجئين في طقس بارد كالموت. هذا سؤال طرحته الآن فقط، وقتها كنت أريد. وأنا حين أريد تكبر الفكرة في رأسي ولا أهدأ حتى أنفذها.

قبالتي، تجلس فتاة.. تدخن الشيشة وتنظر في اتجاهي. تجاهلتها مرات كثيرة لكنها لم ترعو. اقترب مني نادل المقهى وقال لي اذا

ازعجتك هذي «الشرموطة» انا أطردها! قلت له أن لا يفعل فابتسم بمكر وغادر.

واصلت التحديق بي، فتعمدت النظر إليها. ابتسمت فابتسمت، أومأت لي بيدها تدعوني إلى الطاولة فوافقت.

كان شوقي العنيزي قد أرشدني على فندق جيد، ودلني آزر مناصري على مقهى يديره تونسي في وسط البلد. وكنت قد نزلت في الفندق ولم أكتشف المقهى بعد.

حملت قهوتي وجهاز الحاسوب وانزحت نحو طاولة الفتاة.

سألتها عن أخبارها وقدمت بنفسي بسرعة (فلان من تونس) واسترسلت في الكلام، كان ظاهرا أنها من سوريا، بالنسبة لي على الأقل ولكنها أكدت ذلك قولا. عاد نادل المقهى ووقف قرب الطاولة، فقلت له انها ضيفتي ولها أن تطلب ما تريد.. ابتسم وغادر يحضر شيشة (أرجيلة).

تمازحنا قليلا، وتحدثنا عن أشياء بلا معنى تخص الطقس واللهجات والناس.. كانت تتذمر من سوء الشيشة فاقترحت أن نذهب إلى «جفرا» (مقهى شهير في وسط البلد) فوافقت. تمشينا على طول شارع الثقافة، كان البرد لا يطاق. طلبت منها اصطحابي لاقتناء حذاء بدل الذي دمر الثلج وجوده الواطىء. دخلنا محلا واشترينا حذاء لي ومعطفا لها، وكان المعطف سببي الخفي لدخول

المحل من الأصل. وقفنا على الرصيف، كنت أنظر إليها وقد تحولةالكون إلى فراغ، كانت بالنسبة لي هي الكتلة الفيزيائة الوحيدة في «تراجكتوار» البصر.. أمسكت ذراعي بلطف وقالت مبتسمة «لويش تأخرت، كنت إجيت من سنة والا سنتين ماكان أحسنلك؟».

أمسكت يدها بيدي ومددت الأخرى إلى تكسي فتوقف وقلت له: «مقهى جفرا لو سمحت».

واصلت نادية الحديث مع السائق وكنت أتذكر قصة جفرا ومحمود درويش وأدندن بيني وبين نفسي «ولجفرا... سأغني»...

مخيم الزعتري*

دخلت المخيم، بتصريح كلفني مائة دولار لبعض ساعات. منحوني بطاقة «عضو إغاثة دولية»، على أن أعيدها عند الخروج. كان أحد الشباب قد ساعدني في ذلك، وهو سائق تاكسي التقيته بمساعدة أصدقاء تونسيين جاءوا قبلي إلى الأردن.

وحتى لا أوهم الناس بصفتي المزورة، وضعت البطاقة في جيبي حال دخولي إلى المخيم. كان عبارة عن بطحاء واسعة جدا، مزروعة بالخيام البيضاء والتي أصبح لونها بنيا بفعل المطر والأتربة. آلاف الناس يمشون في كل الاتجاهات، وأنا واقف لا أعرف أي منعطف أتخذ. الثلج يغمر الحفر والمنخفضات والطين المبتل يعرقل السير.

في منتصف المخيم، وعلى طول شارع ترابي يقع السوق وهو عبارة عن أشياء بسيطة يبيعها الناس لبعضهم، وأغلب المواد تتبع منظمات دولية كتب عليها ممنوع بيعها.. ولكن كل شيء يباع! ولأن السوريين أصحاب نكتة حتى في الضيق، أطلقوا على الشارع تسمية «الشونزيليزي» من باب السخرية السوداء.

* مخيم للّاجئين السوريين في الأردن.

وفي حين كنت أتبع الأماكن الصلبة، مبتعدا عن المستنقعات الصغيرة، عرف الجميع أني أجنبي أو جديد على حياة المخيم. وانطلقت بعض العبارات من أفواه الشباب داخل السوق؛ عبارات سخرية واستفزاز.. قابلتها بابتسامة ومررت. ومن باب خيمة غير بعيدة عني، خرجت فتاة لم تتجاوز الخمس سنوات في عمرها. ركضت في اتجاهي، توقفت فإذ هي أمامي مباشرة تعطيني مناديل ورقية مبتلة تماما وتقول بالحاح «اشتري مني عمو الله يخليك!».

كنت متفاجئا جدا، غير أن الصبية عنقت رجلي فخفت عليها من أن تتأذى. نزلت على ركبتي حتى غاصا في الثلج والوحل، نظرت في عينيها اللتين كانتا خضراوين كحبتي فستق حلبي، كان على خدها الأبيض نمش قليل اختلط بالتراب.. كنت امسك كفها الصغير وأردد كالببغاء «حاضر حاضر». وكانت فرحة كعصفور يرى القمح بعد الجفاف. أدخلت يدي إلى جيبي ومنحتها ورقة نقدية وهممت بالذهاب لأن الدمع لم يتركني أرى جيدا. لكنها صرخت: «عمو.. انتظر اجيبلك فكة!».. لوحت لها بيدي وغادرت لكنها بقيت تنادي بأعلى صوتها: «تع بكرة اعطيك الباقي، عمو الله يخليك».

الخلود للأدباء

خرجت من بيت عبد الرزاق عبد الواحد مقتنعا من صميم داخلي بأن المجد والخلود للأدباء، وأن ما تبقى من حيوات لا يستحق مطلقا أن يعاش. قرأ لنا الشعر بصوته، دون إلحاح منا، كانت يده اليسرى تمسك يدي اليمنى فيضغط عليها قليلا كلما كبس مقطع ما على قلبه المتعب. يقرأ، والدمع لا يكف بلاه عن عينيه المجهدتين.

وحين أتم القصيدة توجهت أم خالد إلي بالسؤال «للحين ما فهمت ليش كل وين يقرا قصيدة يبكي». تلقفت الإجابة حتى أبعد عن الشاعر الحرج فقلت: «لأنها تخرج من الروح والقلب يا أميمه، هل هناك ما هو أصدق من الدمع؟»

ابتسمت كالملاك، وأومأت برأسها ورددت بهدوء «أميمه، ما أحلاها ذي الكلمة!».

سألته عن سبب التحاقه بالبعث، وعن العراق وحدثني عن صدام حسين لكني سأعود لذلك لاحقا. يعنيني في الشاعر «الحب». كان ينظر طوال جلسته إلى زوجته، كأنه يريد أن يأخذ من ملامحها ما استطاع، وكانت في كل مرة يصيبها الخجل فتبتسم.. ومازحتها قائلا: «أنت عظيمة لأنك احتملت مزاج شاعر لمدة ستين عاما من

الزواج!». أجابت دون مهمهة وبثقة منقطعة «ولو ستين ثانيات، ولو ينعاد العمر ما أختار غيره»!

شربنا قهوة عراقية، مازالت لذتها في مذاقي، قهوة من يد امرأة حقيقية وزوجة شاعر كبير. وكان صديقي سامح مطر «شاعر عراقي» لا يخفي اعجابه باللقاء وبالحميمية العالية التي جمعتني به، كنت أحدثه كأني ألتقيه للمرة الألف ولم تكن سوى الأولى والأخيرة. سألني عن تونس، وسألته عن أصدقائه فقال بحسرة: «كبرت، أمجد عيني ما عدت أذكر» وفجأة كأن شيئا لمع في ذاكرته، اتسعت عيناه وأضاف «أعرف سليم دولة، والمنصف الوهايبي.. شقد اشتقت للمنصف». كانت لحظة صادقة وثاقبة ومهيبة امسكت هاتفي وكتبت ذلك على صفحتي في الفايسبوك، وأجابني الوهايبي بعد يومين يريد رقم الرجل لاستضافته في معرض الكتاب وكنت وقتها في طريق عودتي إلى الرياض!

حق العودة

لم أذهب إلى «البترا»، لم يكن لدي الوقت ولا المال ولا الرغبة لأفعل ذلك. لكني ذهبت إلى البشر، الناس الذين ولدنا من أرحام أمهاتنا نحبهم. هؤلاء الذين هتفنا لهم بالنصر منذ الطفولة، وضربنا البوليس لأجلهم ونحن شباب، هؤلاء الذين سنبقى نحبهم مهما كان ومهما حدث. أهلنا الغائبين عنا منذ قرن، إخوتنا في الأرض والعرض والله والدم.

«أخوك فلسطيني»، يقولها بلهجة الغزاويين أو الضفة، يافا أو حيفا أو جنين. يقولها بنبرة أهل الأرياف والقرى أو بنبرة المدن والحواضر. يقولها بالكاف أو بالقاف تفهمها. ليست لغة، إنها شيء أخر، كلمتين وتجد نفسك مرغما على تشغيل لواقط القلب والعاطفة وما تبقى من مشاعر لتبكي، ربما لم تسعفك الدموع لكن وجدانك سيذرف ما به من حزن!

دخلت مخيم «البقعة»، وهو أكبر تجمع لجوء للفلسطينيين في العالم. عبارة عن مدينة متراصة، بيوتها متساوية المساحة 90 متر مربع للبيت، وهي على ملك الدولة الأردنية منذ تأسيسها عقب النكسة.

لكن الفلسطينيين هناك يضيفون طوابق من مالهم ليجدوا أين تحيا الأجيال..

يحيط بالبقعاء خندق عميق جدا، يفصلها جغرافيا عن العالم، وفوقه يمر جسر متحرك. كان الملك حسين يستعمل الخندق والجسر ليفصل المخيم ويخمد أي حراك جماهيري فلسطيني هناك..

تمشيت في الشوارع والأنهج، ليس هناك صرف صحي ولا طرق لائقة. وأفضل بناء متماسك هو مدرسة «الأونروا»..

يسمي الناس شوارعهم بأسماء مدنهم المحتلة، فتجد كل فلسطين مجسدة أمامك في شوارع وأنهج. دخلت بيت صاحبي (لن أذكر اسمه خوفا عليه)، تحدثنا عن كل شيء. عن جوازات السفر التي مدة صلوحيتها سنتين وعن التلاميذ الذين يمنعون من دراسة اختصاصات بعينها ولو نالوا التميز في الثانوية العامة!

حدثني أحد الشباب أنه يريد الذهاب إلى كندا، وأن والده لا يسمح. حاولت الحديث مع الوالد ولكن صدمني حلمه بالعودة. كان واثقا فخجلت وأنهيت الكلام! في البقعة كل شيء مرتفع الثمن وكل شيء يأتي من عمان، ليس فيها لا صناعة ولا فلاحة. هكذا لضمان بقائهم تحت رحمة السلطة. كل شيء بثمن باهض إلا المتاعب فهي مجانية لكل فلسطيني.

كانت زيارتي للأهل، نصلا مازال يتغلغل في القلب، هناك حين تقف على ضفة نهر الأردن (ممنوع لضمان سلام الصهاينة) ترى فلسطين هناك، فتاة تفتح ذراعيها وتنادي عليك «اشتقتلك يا حبيبي طوولت الغيبة، تعال أحضنك» ولكنك ككل منهزم وككل عربي حزين تلوح لها كاذبا «سأعود» وترحل بدموع لا تنفع حتى التماسيح...

ترحل وأنت موقن بأن بقاء لاجيء واحد خارج دياره، هو وصمة عار أبدي تطارد البشرية مهما استكلبت واستذأبت..

فهرس المحتويات

الرسالة / بقلم: آدم فتحي 5
عزلة 11

نرجسيّة! 13
كتابة أخرى 15
بلّور السماء 17
غائم قلبي 19
الوقتُ الميّتُ 21
صورٌ في المخيّلة 22
الهروب 23
انزياح 25
الأحلام 27
غناء 29
المقاطعة 31
وحدي 34
موّال لا غير 35
وسامةٌ صباحية 37

الحصار الوبائي 39
حجر عاطفي 41
وباءُ الأحزان القاتل 43
ممرٌّ آمن 45
قاتلُ الأحلام 47
أودية التّذكر 49
جنون وهمي 52
رسومٌ من الغيم 54
مديح الصحراء 57
عزلة 60
زبد الذاكرة 62
وحيدان 64
مونولوج الشرود 66
طيور الحرب 68
رحلتي الى الربع الخالي 70
نشيج 72
مآزق مبدئية 74
الاستقبال 77
غربان 80

إلى البحر 81
المنظور الهندسي 83
أشتري وِحدتي 85
مناطحة 88
على سفر 91
الصخيرات 93
أبي 96
بطاقة هوية سابقة 99
بردُ التّذكر 102
الطّيشُ في أكنافِهم 104
الحنين 107
سفرٌ 109
مذكرات الصّبر 111
المَطرُ مُجدّدًا 114
حراثة في الذاكرة 117
صيامٌ 122
غربة 125
سببٌ للرحيل 126
عربدة على التاريخ 128

مَعابر 131
رحلة إلى عمّان 133
المفرق 137
مخيم الزعتري 141
الخلود للأدباء 143
حق العودة 145